

السبيل إلى التوحيد

صدر سنة ١٤٣١هـ. ٢٠١٠م.

حقوق الطبع محفوظة

مكتب

مشيخة عقل طائفة الموحدين الدروز

فهرس المحتويات

توطئة.

مقدمة. الموحدون الدروز.

تمهيد في العقيدة التوحيدية.

الله سبحانه وتعالى.

الإنسان غاية الإبداع.

الرسالات السماوية.

الفصل الأول: ثوابت الموحدين.

العدل الإلهي.

النبوه.

الإمامة.

المعاد.

خلود الروح.

الفصل الثاني: فرائض الإيمان التوحيدية:

الطاعة.

العبادة.

الصلاة.

النوايا الخيرة.

الفرق بين الحلال والحرام.

الفصل الثالث: التخيير في الأعمال.

معرفة النفس.

الاجتناب والاكْتِسَابُ.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

العلم والعمل.

الدنيا دار ممر لا دار مستقر.

التوبة.

الفصل الرابع: المسلك الروحاني البسيط.

الصدق.

تهذيب الأخلاق واستشعار الخلاق.

إنما المؤمنون أخوة.

التربية.

الرضى

التسليم

الفصل الخامس: خلاصة مفهوم مذهب التوحيد.

الفصل السادس: أمر الحلال والحرام لدى الموحدين الدروز.

الفصل السابع: البعد الانساني الكوني.

الفصل الثامن: ماذا تقدم عقيدة التوحيد للشباب المعاصر؟

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين
وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد،

منذ سنوات وجمهور الموحدين الدروز في الوطن والمهجر يطرح علينا السؤال: كيف نوجه أبنائنا، والمهتمين من شبابنا ومتقينا إلى سبيل التوحيد والخصال التوحيدية؟ كيف نقدم لهم بأسلوب بسيط وموجز ما يمكن اعتباره مقومات الهوية الروحية، وأسس الاعتقاد والسلوك التي تُطمئن قلوبهم وتُذهبُ هاجسَ الحيرة عن نفوسهم؟ وغالبا ما كان الأمر ينتهي إلى المطالبة بنص مرجعي يكون في متناول الجميع ويُعتبر مدخلا إلى سبيل التوحيد وما يترتب عليه من إزمات أخلاقية وسلوكية. وقد لفت العديد من الإخوان إلى حالة اللامبالاة التي تتسلل إلى عقول شبابنا والتي غالبا ما تؤدي بهم إلى التشكك أو إلى التأثر بثتى منوعات الأفكار اللأدرية أو الوقوع تحت تأثير التأويلات المشوشة أو حتى المغرضة والتي تفتقر إلى الصحة وغالبا ما تحمل ظلما شديدا للموحدين الدروز.

ولأن الموحدين الدروز معروفون بحذرهم من مكر النفس الأمارة بالسوء والانتباه الدائم لموجبات تهذيبها وتهيئتها لاستقبال الحقائق والتقرب من الله تعالى.

لذلك، ومن أجل تلبية هذه الحاجة الأساسية في زمن الغزو الإعلامي الفكري وتكاثف الضغوط النفسية، ومن أجل المساهمة في حماية أولادنا وشبابنا، عملنا بمؤازرة إخواننا في الهيئة الاستشارية والمجلس المذهبي على وضع هذا المرجع المبسط الذي أسميناه السبيل إلى التوحيد، وهو كما يجب أن نوضح، دليلٌ ومدخلٌ لبحر واسع لا يُدرَك مداه. بدايةً للمهتمين الذين تتوق أنفسهم إلى سلوك دروب الكمال والترقي.

شاكرين جهود جميع الذين ساهموا في الدرس والإعداد، سائلين الله سبحانه وتعالى لهم حسن الثواب والجزاء.

شيخ عقل طائفة الموحدين الدروز

الخادم الروحي

نعيم حسن

٧ آب ٢٠١٠

المُوَحِّدُونَ الدَّرُوز

مقدمة

تعود أنسابُ معظم الموحِّدين الدروز إلى قبائل عربيَّة، عريقة في أصلابها، وأثيلة في مآثرها المجيدة دفاعاً عن الأمة وكرامتها على مرِّ التاريخ، وهي قبائل استقرت قبل الإسلام في بلاد الشام منها لخم، وطيء، وتيم الله (تيم اللات)، وربيعه، النجدية، وبنو جندل الذين ينتسبون إلى قبيلة تميم، وغيرها من القبائل المذكورة. أمَّا نسبتهم إلى الدرزية فهو خطأ تاريخي ترتب عن التباس في الفهم وقع فيه المؤرِّخون نتيجة عدم توخي الدقَّة والموضوعية.

حافظ الموحِّدون عبر التاريخ على انتمائهم الأصيل للأمة، وعلى تقاليدهم العربيَّة الرَّاسخة بفضل ما تحلوا به من مكارم الأخلاق، والتمسك بتقاليد السلف الصالح بكل ما يُرافقها من عادات، وقواعد المروءة، والنخوة، والشرف، وآداب الحديث والضِّيافة. وكان تاريخ هذه القبائل العربية التي تقدّمت إلى ثغور بلاد الشام منذ القرن الثاني للهجرة، مُرتبطاً ومُلتحماً بالدور التاريخي المعروف بـ"المناعرة"، أي الدفاع عن ثغور الأمة ضد الغزاة الفرنج على مرِّ العصور. وهذه المهمة، بكلّ أبعادها التاريخية، طغت على

الشعور المذهبي الضيق لصالح رُوح التعاضد مع الجماعة كما يشهدُ بذلك تاريخُهم الوطنيّ، وسيرُ رجالِهم الكبار.

عُرف الموحّدون الدروز عبر التاريخ بعاداتهم العربية الأصيلة، وبأخلاقهم وآدابهم وبإخلاص النوايا، وتماسكهم، وتعاضدهم، وتعاونهم، واتفاقهم، وثقتهم بأنفسهم، وبالله عز وجل واستنادهم المتين على إيمانهم بواجب التّضحية، وبذل الذات دفاعاً عن قيم الحرية والكرامة والحقّ الإنسانيّ الموهوب من ربّ العباد، وهذه عندهم هي لبّ كلّ حضارةٍ جديرة باسمها.

لقد اتّسم الموحّدون بروح الوطنيّة الجامعة، وبحسّ السّياسة الحكيمّة، وبسجايها الأخلاق الرّفيعة، فهم يأبون الضّيم، ويأبون احتمال الظلم، ولا يهابون عاجل الموت إذا ما هُدّوا في أرضهم، وحرمة أعراضهم وكراماتهم، فهم قوم يرون الحقّ عاليّاً فوق منطق أيّ قوّة غاشمة مهماً قلّ مناصروه، ويرون الباطل بدداً وإن كثر ذوهه.

وقد تغنى بعض كبار الشعراء بما تيقّنوه من صفات الموحّدين وسجايهم، فوصف أمير الشعراء أحمد شوقي بني معروف قائلاً:

وما كان الدُرُوزُ قبيل شر
وإن أخذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادةً وقراءةً ضيف
كئنبوع الصفا خشنوا ورقوا

أما الشاعر العربي الكبير حافظ إبراهيم فيقول في قصيدة له:

لا يصبرونَ على ضيمٍ يُحاولُهُ باغٍ من الألسِ أو طاغٍ من الجانِ

وللأديب الكبير مارون عبود قصيدة هامةٌ يذكُرُ فيها مناقبَهُم وتمايزَهُم عن
غيرهم أدباً ومسلِكاً.

غسان الحلبي

مستشار مشيخة عقل

طائفة الموحدين الدروز

تمهيد في العقيدة التوحيدية

تبارك الله، رب العالمين جميعاً، سبحانه المبدع الصانع، الواحد الأحد، عجزت العقول عن إدراك ذاته، المنزه، الموجود الدائم، لا يدرك بالباطن ولا بالوهم، ولا يلحقه إسم ولا صفة، ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ (سورة الشورى ١١)، ﴿والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ (سورة البقرة ١١٥).

قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (الأنعام ١)، فأظلم ليئلهما، وأنارَ نهارهما، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء ٣٣) نعمة منه عليكم ورحمة، ودلالة على عظيم سلطانه، وأن له الألوهة والعبادة خالصة دون كل ما سواه. (الطبري). سابق علمه كل شيء ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام ٥٩) دلالة على شمول علمه الكليات والجزئيات. فهو ذو العلم وذو الحكمة المتفرد بالإحاطة بكل معلوم. أوجد الموجودات بقدرته، وفي كل منها أكان متاهياً في الصغر أو متمادياً في الكبر حكمة بالغة، وآية معجزة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد ٤). أي "يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون عقولهم" (البيضاوي).

فالله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد والتوحيد عبادة الواحد الأحد.

أمر الله

لما كان البارئ سبحانه منفرداً بذاته، غنياً عن مخلوقاته، منزهاً عن صفات مصنوعاته، فجعل للموجودات جميعها علّةً ينتزه بها عن مباشرة الكائنات بذاته، وهي العقل، الذي هو أمر الله وإرادته. قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (صورة يس ٨٣).

وفي حديث العقل المنسوب إلى الرسول (صلم) أنه قال " أول ما خَلَقَ اللهُ العَقْلَ فقال بك أعطي وبك امنع" (الغزالي) وهو العقل الأرفع، بمعنى الطاعة الكلية دون شرك.

الإنسان غاية الإبداع

كَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ جَعَلَ الْإِنْسَانَ النَّاطِقَ الْغَرَضَ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. (٢) فَسَخَّرَ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَهُ كَامِنَ الْجَوْهَرِ، تَامَّ الْقَصْدِ، عَلَى أَحْسَنِ تَصْوِيرٍ، وَأَجْوَدِ تَقْدِيرٍ، وَأَتَمِّ تَدْبِيرٍ، كَمَا قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿لَقَدْ

(٢) سورة المؤمنون "١٢، ١٣، ١٤"

خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿التين ٤﴾. ثُمَّ عَلَّمَهُ، بِإِرَادَتِهِ، مَا بِهِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْمَعَايِشِ وَالْمَنْطِقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن ٤).

إِنَّ إِرَادَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هِيَ الْعِلَّةُ فِي خَلْقِ الْعَاقِلِ الْحَيِّ النَّاطِقِ الْمُتَحَرِّكِ الْمُمَيَّزِ عَنِ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ بِخِصَالٍ وَصِفَاتٍ خَصَّهُ الْمَبْدِعُ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ. فَهُوَ الْعَاقِلُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْعَقْلِ اللَّطِيفِ، وَهُوَ الْحَيُّ بِمَا فِيهِ مِنَ النَّفْسِ، وَهُوَ النَّاطِقُ بِقُدْرَتِهِ عَلَى النَّطْقِ وَالْكَلامِ، وَهُوَ الْمُتَحَرِّكُ بِمَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالٍ سَابِقَةٍ بِالْعَزْمِ، وَتَالِيَةٍ بِالتَّحَقُّقِ.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (البقرة ٢١٣)، يَتَسَاوَى فِي ذَوَاتِهِمُ الْإِسْتِعْدَادُ لِقَبُولِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِالرَّغْمِ مِنْ فِطْرَةِ الدِّينِ الْقَيِّمِ، أَيْ الْمُسْتَنْقِيمِ الَّذِي لَا عِوَجَ فِيهِ، الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا كَمَا قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلِ ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم ٣٠)، فَاخْتَلَفُوا عِنْدَ وُقُوعِ امْتِحَانِ التَّخْيِيرِ بَيْنَ الطَّاعَةِ الَّتِي هِيَ فِعْلُ الْعَقْلِ الْأَسْمَى، وَبَيْنَ الْمَعْصِيَةِ الَّتِي هِيَ الْعِنَادُ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، وَاسْتِسْلَامِ النَّفْسِ إِلَى نَوَازِعِ الْهَوَى وَجُمُوحِ الرَّغْبَةِ.

وبهذا جاء التفاضل الذي لا يصح الثواب والعقاب إلا به من ناحيتين:

- التوحيد لله على مقدار العلم والقوة.
- إيجاد التوازن في سجايا النفس بمكابدة الجهد والعمل لغلبة الخير على دواعي الهوى.

الرسالات السماوية

ثمّة في التّعليم التّوحيديّ مفهومٌ راسخٌ مفاده أنّ نورَ الهداية لا يبرح العالمَ طرفة عين، وأنّه لولا هذا المدد المتواصل لتلاشى الخلق واضمحَلَّ، ولتعتطت الحكمة الضابطة الوجود وحاشا الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. إن الله جلّ ذكره الأكثر قرباً لخلقهِ من حبلِ الوريد، والمنزّه في الآن عينه عن "المباشرة"، لم يُخلِ العالمين من صفوةٍ قائمةٍ بالدعوة إليه، وهدايةٍ إلى صورة الحقِّ، ومذكّرةٍ بالخير، ومُبشّرةٍ بأنّ التّحقّقَ بمعاني الكتاب هو السبيل إلى الكمال الإنسانيّ الأرفع.

لقد شاعت إرادة الباري الرَّحيم أن تكونَ الوسطةُ سبيلاً إلى معرفته، رافةً بعباده، وإتماماً لحكمته. قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة ٣٠)، ويُفهم من سياق السّورة الكريمة أنّه آدم (ع). إنّ النبيّ الوسطة يُسمّيه الموحّدون حدّاً من حيث أنّه سراج نور المعرفة التّوحيديّة في حيّز الزّمان والمكان.

إنّ وجودَ الحدِّ هو رحمةٌ كبرى، لأنّ لو كان للإنسان اتّصالٌ بالعلم الإلهيِّ من غير استدراجٍ بالوسطة لصعقَ صعقاً لعجزه عن إدراكِ

ما لا طاقةَ له به. فكانَ من حِكْمَةِ القادرِ الحكيمِ أَنْ مَدَّ الحَدَّ بتأبيده
كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة ٣١).

كذلك النعمة الروحية لا يصل الإنسان إليها إلا بالعروج في مراقبي
الكمال، أفاضها الله على عباده بالتدرج الرسالي والتاريخي من
طور إلى طور حتى جاء الإسلام خاتم الرسالات، والشرائع
المنزلة حلقات نورانية متصلة في سلسلة الوحي المباركة إذا انفكت
فرط عقد السلسلة المنتظمة.

وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ
مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ
زُبُورًا﴾ وَقَالَ جَلَّ جَلَّاهُ ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء ١٦٣
و ١٦٥).

هكذا، لم ينقطع عصرٌ من العُصُور عن الصلَّةِ بكلمةِ الهدى وبيِّنَاتِ
الفرقان المُتضمَّنة "آياتٍ واضحاتٍ من جُملةِ الكُتُبِ الإلهيةِ الهاديَّةِ
إلى الحقِّ، والفرارقةِ بينَ الحقِّ والباطلِ باشتِمَالِها على المَعَارِفِ
الإلهيةِ والأحكامِ العمليَّةِ" (روح المعاني).

جاءَ في الكتابِ الكريمِ، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران ١٩)، وجاءَ في "رُوحِ البَيَانِ: "حَقِيقَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ التَّوْحِيدُ". واتفقَ غالبُ العُلَماءِ على أَنَّ المرءَ لَا يَكُونُ مُسْلِمًا عِنْدَ اللَّهِ بِدُونِ التَّصَدِيقِ، وَأَنَّهُ لَا يَكْفِي مُجَرَّدَ القَوْلِ باللسانِ وَالإقرارِ بِدُونِ التَّصَدِيقِ مِنْ عُمُقِ القَلْبِ. وَهَذَا يُطَابِقُ الشَّرْعَ فِي تَعْرِيفِهِ لِلإيمَانِ بِأَنَّهُ "تصديقٌ بالجنانِ، وقولٌ باللسانِ، وعَمَلٌ بالأركانِ". فالإسلامُ بابُ الإيمَانِ والإيمانُ بابُ التوحيدِ.

عَلَّمَ جبريلُ النَّاسَ دِينَهُمْ لَمَّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ بَيْنَ النَّاسِ قَائِلًا: "مَا الإيمَانُ؟ قالَ: الإيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَبِلقاءِهِ، وَرَسُولِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعثِ. قالَ: مَا الإِسْلَامُ؟ قالَ: الإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَقْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ. قالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ" (البخاري)، وَالإِحْسَانُ هُوَ التَّوْحِيدُ.

الفصل الأول ثوابت الموحدين

الثوابت الواجبة على الموحّد تجاه الله سبحانه وتعالى:

العدْلُ الإلهيُّ

قالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (النساء ٤٠). وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يونس ٤٤). العَدْلُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، يُرَدُّ الْمُوحِدُونَ فِي أَدْبِيَّاتِهِمُ الْمَسْلُوكِيَّةِ عِبَارَةً: "لَوْ عَلِمْتُمْ الْغَيْبَ لاختَرْتُمْ الْوَأَقِعَ"، دَلَالَةٌ عَلَى إِيْمَانِهِم بِالْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَجَوْهَرِهَا الْعَادِلِ، وَبَأَنَّ الْخَلْقَ لَا يُدْرِكُونَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ السَّرَّ الْكَامِنِ فِي مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا. فَمَنْ تَيَقَّنَ بِبَصِيرَتِهِ جَمَالَ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ، تَشَوَّقَ إِلَى رُؤْيَةِ رُوحِهِ فِي مِرَاتِهَا، فَلَا يَظْلِمُهَا بِاتِّبَاعِ الْمَعْصِيَةِ، بَلْ يُحَقِّقُ الْفَضِيلَةَ بِالنَّبَاتِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ مُوجِبَاتِ الْعَدْلِ وَالِاسْتِقَامَةِ.

إِنَّ اعْتِقَادَ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ يُوْجِبُ الْإِيْمَانَ بِكُلِّيَّتِهِ مُطْلَقًا، بَدَأً مِنْ مَبْدِئِ الْمُسَاوَاةِ التَّامَّةِ لِنُفُوسِ الْخَلْقِ عِنْدَ إِجَادِهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ فِي الزَّمَانِ، مَهْمَا كَانَتْ اخْتِلَافَاتِ الشَّرُوطِ الْحَيَاتِيَّةِ مُتَنَوِّعَةً بَيْنَ الْبَشَرِ، وَمَهْمَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ فِي دُنْيَاهِ مِنْ أَوْجُهِ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَمَا يُعْبَرُ عَنْهُ

بالقضاء والقدر. وسِرُّ عَدَلِ اللَّهِ تَعَالَى بَالِغِ الْحِكْمَةِ، لَيْسَ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا وَحَسَبِ، بَلْ فِي آجَلِ الْآخِرَةِ حَتْمًا، قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة ١٤٣).

النَّبِوَّةُ

يَحْتَاجُ الْبَصَرَ إِلَى نُورِ الشَّمْسِ لِكَيْ تَكْتَمَلَ صِحَّةُ الرَّؤْيَةِ. وَبِالسُّوْيَةِ ذَاتِهَا، تَحْتَاجُ الْبَصِيرَةَ إِلَى نُورِ النَّبِوَّةِ لِكَيْ تُضَاءَ أَمَامَهَا سُئُلُ "الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ".

لَقَدْ كَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ أَنْ هَيَّأَ الْإِنْسَانَ لِعِلْمِ الْبَيَانِ، فَكَانَ الْخَيْرُ فِيهِ بِالْفِطْرَةِ، وَوَهَبَهُ الْعَقْلَ وَالِاسْتِعْدَادَ فِي قُوَى النَّفْسِ لِقَبُولِ الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ، وَالْمَسَالِكَ الشَّرِيفَةِ، وَالْقِيَامَ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ. غَيْرَ أَنَّ احتِياجَ الْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ، وَقُوَى النَّفْسِ الطَّائِعَةِ، إِلَى الْهَدَايَةِ وَالِإِرْشَادِ وَالتَّعْلِيمِ وَتَجَنُّبِ الْوُقُوعِ فِي الْغَفْلَةِ هُوَ احتِياجٌ ضَرُورِيٌّ لِتَنْبِيهِهَا وَتَذْكِيرِهَا بِالْبَشَارَةِ وَالِإِنذَارِ كَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (البقرة ٢١٣). وَلَا يُمَكِّنُ لِلْعِلْمِ أَنْ يَكُونَ لَطِيفًا نُورَانِيًّا مَفْعَمًا بِجَلَالِ سِرِّ الْجَمَالِ الْإِلَهِيِّ وَالْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ إِلَّا إِذَا كَانَ مُنْبَثِقًا مِنْ عَيْنِ التَّأْيِيدِ، وَجَارِيًا بِالْوَسَائِطِ الشَّرِيفَةِ، وَمُرْسَلًا عَلَى أَلْسِنَةٍ مِنْ اصْطِفَائِهِمُ اللَّهُ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ، الْحَكِيمِ الْحَمِيدِ، لِتَأْدِيَةِ الرِّسَالَةِ، وَإِتْمَامِ الدَّعْوَةِ وَإِنجَازِ الْوَعْدِ، وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ.

الإمامة

قَالَ تَعَالَى ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (يس ١٢)، وَهُوَ "أُمُّ الْكِتَابِ" عِنْدَ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، أَي جُمْلَتُهُ وَأَصْلُهُ وَعِلْمُهُ. وَ"مُبِينٌ"، أَي مُظْهِرٌ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ مَا كَانَ وَمَا سَيَكُونُ. سُمِّيَ إِمَامًا لِأَنَّهُ يُؤْتَمُّ بِهِ وَيُتَّبَعُ. وَفِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ سُمِّيَ النَّبِيُّونَ أئِمَّةً، وَمَا أَتُوا بِهِ مِنْ صُحُفِ أئِمَّةٍ أَيْضًا، مِمَّا يَعْنِي أَنَّهُ بِقَدْرِ مَا يُؤَيِّدُ الْحَدِّ مِنْ مَعْرِفَةِ عِلْمِ اللَّهِ، وَاسْتِشْفَافِ لَطَائِفِ الْمَعَانِي الشَّرِيفَةِ، فَإِنَّهُ بِالْقَدْرِ نَفْسِهِ تَسْمُو بِهِ الْإِمَامَةُ، وَتَقْتَرِبُ مِنْ مَعَانِيهَا الْحَقِيقِيَّةِ. وَفِي هَذَا الْمَعْنَى، فَإِنَّ الْإِمَامَةَ وَاجِبَةٌ بِالضَّرُورَةِ لِأَيِّ تَعْلِيمٍ رَاسِخٍ فِي الْأَصُولِ لَدَى مُخْتَلَفِ الْمَذَاهِبِ عَلَى اخْتِلَافِ نَظَرَتِهَا لِتَفْسِيرِ دَوْرِ الْإِمَامِ.

المعاد

كُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ هُوَ الْمَعَادُ، وَالْآخِرَةُ مَعَادٌ لِلنَّاسِ. وَيَوْمُ الْمَعَادِ يَعْنِي يَوْمَ الْآخِرَةِ، وَلَهُ أَسْمَاءٌ كَثِيرَةٌ مِثْلُ يَوْمِ الدِّينِ، وَيَوْمِ الْحِسَابِ، وَيَوْمِ الْحَقِّ. وَالْمَوْحَدُ يَعْتَقِدُ قُدُومَ الْخَلْقِ بِأَسْرِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَهِيبِ ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ (الزلزلة ٦)، حَيْثُ يُكُونُ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْحَاكِمَ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَتَدِينُ الْخَلَائِقُ بِأَسْرِهِا اللَّهُ تَعَالَى وَلِرِسْوَلِهِ بِالطَّاعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ. وَالْمَوْحَدُ مُصَدِّقٌ بِفُؤَادِهِ وَجَوَارِحِهِ بِسَاعَةِ

الحِسَاب، وَبِأَنَّ مَنْ ﴿يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة ٧-٨)، وَبِأَنَّ ﴿الْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف ٨-٩).

ومِمَّا قاله الشيوخ الثقات استشعاراً لتلك الساعة المهيبة، وتضرعاً لله تعالى: ثَبَّتَ اللهُ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعَرَضِ أَقْدَامَنَا.

خلود الروح

"الرُّوحُ مِنَ النُّورِ الَّذِي بِهِ أَحْيَا اللهُ الْخَلْقَ" (الترمذي). قَالَ تَعَالَى ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ﴾ (السجدة ٩)، "إِضَافَةٌ إِلَى نَفْسِهِ تَشْرِيفًا لَهُ، وَإِشْعَارًا بِأَنَّهُ خَلَقَ عَجِيبًا، وَأَنَّ لَهُ شَأْنَاً لَهُ مُنَاسِبَةً مَا إِلَى الْحَضْرَةِ الرَّبُّوبِيَّةِ، وَلَأَجْلِهِ قِيلَ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ". عَنَى بِذَلِكَ أَنَّ لِلْإِنْسَانَ شَأْنَاً فِي الطَّاعَةِ يُوْدِي بِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ اللهِ قَدْرَ اسْتِطَاعَتِهِ، وَأَنَّ فِي سِرِّ لَطَائِفِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مَقْدَارٌ مِنَ اللَّطَافَةِ يَعِينُهُ عَلَى حُسْنِ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ، وَقِيَامِهَا بِالْوَاجِبِ اللَّائِقِ بِكَرَامَتِهَا. وَالرُّوحُ "مِنَ الْإِبْدَاعِيَّاتِ الْكَائِنَةِ بِـ﴿كُنْ﴾" (البيضاوي) مِنْ جَوْهَرٍ فِعْلٍ الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي هُوَ "يَنْبُوعُ الْوُجُودِ بِالْقُدْرَةِ الَّتِي مِثَالُهَا فَيَضَانُ نُورَ الشَّمْسِ" (روح البيان).

يُقَرُّ الْمُوحِّدُ إِقْرَارًا رَاسِخًا بِأَنَّ ﴿الرُّوحَ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء ٨٥)، ولأنَّهَا بِهَذَا الْمَقَامِ الْجَلِيلِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْأَصْلِ النُّورَانِيِّ الْأَقْدَسِ، فَهِيَ خَالِدَةٌ بَاقِيَّةٌ، حَاشَاهَا مِنْ وَضْعِهَا عَلَى قَدَمِ الْمُسَاوَاةِ مَعَ الْجِسْمِ الْفَانِيِّ الْمَكُونِ كَمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ ﴿صَلِّصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (الرحمن ١٤)، يَفْنَى بِإِنْجِلَالِ الْعُنَاصِرِ، وَيَتَهَافَتُ بِمُرُورِ الزَّمَنِ. إِنَّ فَانِيَّيْنَ لَا يُكُونُنَا إِنْسَانًا، وَحَرِيٌّ بِالْمَرءِ أَنْ لَا يَظْلَمَ نَفْسَهُ بِإِهْمَالِ الْجَوْهَرِ الْبَاقِيِ، وَالِانْتِشِغَالَ بِالْعَرَضِ الْفَانِيِّ. قَالَ تَعَالَى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(البقرة ٨٢).

الفصل الثاني

فرائضُ الإيمانِ التوحيدية

إنَّ للإيمانِ فرائضَ وأجباتَ شأنها تحقيقُ ثمرةِ الطَّاعةِ في ذاتِ الموحِّدِ في العاجلةِ والآجلةِ. وسَبَقَ أن ذكرنا ما علَّمهُ جبريلُ للنَّاسِ، بِوِاسِطَةِ النَّبِيِّ ﷺ، من أُسُسِ عَقَائِدِ الدِّينِ ومفترَضَاتِهِ. لكنَّ هذه العَقَائِدُ تَحْتَاجُ إلى أَعْمَالِ الجَوَارِحِ، وإشغَالِ خَوَاطِرِ الصُّدُورِ، فِيمَا يَقْتَضِي الوُصُولَ إلى الغَايَةِ مِنْهَا من التَّزَامِ بِقَاعِدَةِ العِلْمِ والعَمَلِ والإخْلَاصِ فِيهِمَا، لِكَي يَسْتَشْعِرَ المُوَحِّدُ الصَّلَةَ بِالحَقِّ، وتَتَكشَّفَ لَبصيرَتِهِ حَقَائِقُ نِعَمِ اللهِ، وأَسْرَارُ لَطَائِفِ مَحَبَّتِهِ.

ومن أهم الفرائض الإيمانية الواجبة:

الطَّاعَةُ

هيَ الانقيادُ لأمرِ اللهِ ونَهْيِهِ في الإقبالِ والعملِ بالمَعْرُوفِ، والإدبارِ عنِ المُنْكَرِ، وَالانْشِغَالُ بِكُلِّ مَا فِيهِ رِضًا وتَقَرُّبٌ إلى اللهِ تَعَالَى. وَالطَّاعَةُ ثَمَرَةُ المَحَبَّةِ، فَمَنْ أَحَبَّ الحَقَّ، انْقَادَتِ جَوَارِحُهُ وَخَوَاطِرُهُ فِي المَسَالِكِ الحَمِيدَةِ، والسَّبِيلِ المُسْتَقِيمَةِ، بِهَدْيِ التَّعَالِيمِ الشَّرِيفَةِ، وَالسُّنَنِ الفَاضِلَةِ. قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ

فَارَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿الأحزاب (٧١)﴾، وَهُوَ أَنْ يُصْلِحَ بَاطِنَهُ وَقَلْبَهُ، فَإِنَّهُمَا مَوْضِعُ نَظَرِ الْحَقِّ، وَيُصْلِحُ ظَاهِرَهُ بِالْأَعْمَالِ الطَّيِّبَةِ، وَاتِّبَاعِ طَرَائِقِ الْهُدَى.

الْعِبَادَةُ

هِيَ "اسْمٌ يَجْمَعُ كَمَالَ الْحُبِّ لِلَّهِ وَنِهَائَتَهُ، وَكَمَالَ التَّضَرُّعِ وَالتَّذَلُّلِ لِلَّهِ وَنِهَائَتَهُ"، لِذَلِكَ هِيَ تَأْلِيَةٌ وَتَقْدِيسٌ لَا يَسْتَحَقُّهُمَا إِلَّا مَنْ لَهُ الْعِزَّةُ وَالْمُلْكُ، ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (مريم ٦٥)، أَي أَطْعَهُ بِجَسَدِكَ وَنَفْسِكَ وَقَلْبِكَ وَسِرِّكَ وَرُوحِكَ، مُتَغَذِّيًّا بِلَطَائِفِ الْعِلْمِ، وَمُقْتَنِبِسًا فَوَائِدَ الْعَقْلِ مِنْ نُورِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، وَمَأْتِرَ أَهْلِ الْعِفَّةِ وَالْفَضْلِ وَالثِّقَةِ. وَلَا تَصِحُّ الْعِبَادَةُ دُونَ اسْتِشْعَارِ يَقِينِيٍّ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْمَوْجُودِ، كَمَا قَالَ ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ (المجادلة ٧). وَعَنْ لِسَانِ الْإِمَامِ عَلِيِّ (ع) كَمَا وَرَدَ فِي شُرُوحِ "نَهْجِ الْبَلَاغَةِ أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللَّهَ رَغْبَةً، فَتِلْكَ عِبَادَةُ التَّجَّارِ، وَإِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللَّهَ رَهْبَةً، فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَإِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللَّهَ شُكْرًا، فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ".

الصَّلَاةُ

عَدَا عَنْ كَوْنِهَا صَلَاةً مَخْصُوصَةً مَوْقُوتَةً، بِهَا كَلَامٌ وَدُعَاءٌ وَتَسْبِيحٌ وَرُكُوعٌ وَسُجُودٌ لِلَّهِ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ فِعْلٌ مِنْ أَعْمَالِ لَطَائِفِ الرُّوحِ إِذْ تَتَوَجَّهَ بِالتَّضَرُّعِ وَالخُشُوعِ وَالاستِغْفَارِ إِلَى الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، رَبِّ الْعِبَادِ، وَغَايَةِ الْغَايَاتِ. وَأَجْمَلُ الصَّلَاةِ هِيَ الَّتِي تَبْلُغُ حَدَّ الصَّلَاةِ بِاسْتِشْعَارِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى "كَأَنَّكَ تَرَاهُ"، وَلَكِنْ مَنْزَمًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى ١١). وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: "أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ إِذَا سَجَدَ".

النَّوَايَا الْخَيْرِيَّةُ

النَّيَّةُ عَمَلٌ قَلْبِيٌّ خَالِصٌ خَصَّهَا الشَّرْعُ بِالْإِرَادَةِ الْمُتَوَجَّهَةِ نَحْوَ الْفِعْلِ ابْتِغَاءً لَوَجْهِ اللَّهِ، وَامْتِثَالًا لِحُكْمِهِ. جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى". فَالنَّيَّةُ رُوحُ الْعَمَلِ، يَصْفُو وَيُثَابُ بِصِفَائِهَا، وَيُخَيَّبُ وَيُيَبَّرُ بِكَدْرِهَا، لِذَلِكَ يَقُولُ السَّالِكُونَ: "رُبَّ عَمَلٍ صَغِيرٍ تُعْظِمُهُ النَّيَّةُ، وَرُبَّ عَمَلٍ كَبِيرٍ تُصَغِّرُهُ النَّيَّةُ".

يُرَدُّ الْمُوَحِّدُونَ الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ"، وَمَوْضِعَ نَظَرِ رَبِّ

العباد أولى أن يكون نقيًا، بريئًا من كل شائبة، ليحصل التوفيق، وتتحقق الغاية المرجوة. والنقات الكبار يُدركون مبلغ عظم صفو النيّة، فالنوايا عندهم قطب الأعمال وسابقة لها، و"الأمر بمقاصدها"، وما من ميزانٍ راجحٍ في الخير دون نيّة طيبة معقودة به.

الفرق بين الحلال والحرام

الحلالُ هو ما أباحه الشرعُ، وأما ما نهى عنه وحظره فهو حرام. إنه من قواعد الدين العظام معرفة ما هو حلٌّ وما هو مُحَرَّمٌ وفقًا لما رسمته الأصولُ الدنيّةُ التي أوحى بها الله عزَّ وجلَّ. ومن يعدم التمييز بينهما، لا يستقيم به مسلكٌ مثمر. ويسلمُ الموحِّدُ بحقيقة وجوب التزام الحلال في جملة أعماله الظاهرة والباطنة، في سعيه الحميد إلى المحافظة على صفاء القلب ونقاء السريرة، ويقينه أن الخبث يتأتى من الوقوع في الحرام لقوله تعالى ﴿وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحْرَمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ﴾ (الأعراف ١٥٧).

الفصل الثالث التخبير في الأعمال

معرفة النفس

ان النفس صفوة المخلوقات، وانها من عالم البقاء، حية جوهرية شفافة، عالمة عاقلة قابلة للخير، معقولة بحبائل العقل، وهي أمارة بالسوء، عاجزة جاهلة قابلة للشر، مهددة بحبائل ابليس.

يَعْتَبِرُ الشُّيُوخُ النَّقَاتُ أَنَّ الْأَخْلَاقَ بِالْحَقِيقَةِ هِيَ سَجَايَا الْخَيْرِ فِي ذَاتِ النَّفْسِ، أَي فِي جَوْهَرِ طَبِيعَتِهَا الْكَامِنِ، فَإِذَا لَمْ يَحَقِّقْهَا الْإِنْسَانُ بِالْفِعْلِ، جَنَحَتِ النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ إِلَى مَا يُضَادِدُهَا، وَارْتَدَّتْ ثَوْبَ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ. أَمَّا إِذَا جَهَدَ الْمَرْءُ فِي تَغْذِيَةِ سَجَايَا الْخَيْرِ بِالْعِلْمِ اللَّطِيفِ الشَّرِيفِ، وَبِالْمَسَالِكِ الْعَادِلَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، فَيُظْهِرُ مِنْهَا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ الْأَفْعَالَ الْجَمِيلَةَ، وَالْأَخْلَاقَ الرَّضِيَّةَ، وَالْأَدَابَ وَالسَّمْتَ الْقَوِيمَ الْمَتَوْلَّدَةَ جَمِيعَهَا مِنْ تِلْكَ السَّجَايَا "الْمَحْمُودَةِ السَّعِيدَةِ" كَمَا سَمَّاهَا الشَّيْخُ الْفَاضِلُ، لِأَنَّهَا "مَقَرُّ الدِّينِ وَمَعْدَنُهُ، وَلَا ثَبَاتَ لِلدِّينِ إِلَّا بِهَا". ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَرَهُ﴾ (الزلزلة ٧-٨) .

الاجتناب والاكْتِسَابُ

يُنبِهُ الشَّيْخُ الْفَاضِلُ فِي إِرْشَادِهِ الْحَكِيمِ إِلَى "أَصْلُ أَصِيلٍ" فِي مَسَلِكِ الطَّاعَةِ، وَهُوَ "أَنَّ الْعِبَادَةَ شَطْرَانِ، شَطْرُ الْاجْتِنَابِ وَشَطْرُ الْاِكْتِسَابِ، فَالْاِكْتِسَابُ فِعْلُ الطَّاعَاتِ، وَالْاجْتِنَابُ الْاِمْتِنَاعُ مِنَ الْمَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ، وَهُوَ النَّقْوَى. وَأَنَّ شَطْرَ الْاجْتِنَابِ أَسْلَمٌ وَأَصْلَحٌ وَأَفْضَلٌ وَأَشْرَفٌ لِلْعَبْدِ مِنْ شَطْرِ الْاِكْتِسَابِ. وَيَسْتَعْلُ أَوْلُو الْبَصَائِرِ مِنْ أَهْلِ الْعِبَادَةِ بِشَطْرِ الْاجْتِنَابِ، إِنَّمَا هَمَّتُهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا قُلُوبَهُمْ عَنِ الْمِيلِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، وَبَطُونَهُمْ عَنِ الْفُضُولِ، وَأَلْسِنَتَهُمْ عَنِ اللَّغْوِ، وَأَعْيُنَهُمْ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَا لَا يَعْنِيهِمْ." وَيُوكِّدُ الشَّيْخُ الْفَاضِلُ أَنَّ حُصُولَ الشَّطْرَيْنِ فِيهِ اسْتِكْمَالُ الْأَمْرِ، وَبَلُوغُ الْمَرَادِ، وَتَحْقِيقُ السَّلَامَةِ وَالْفَلَاحِ.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

تَكَرَّرَ أَمْرُ الْبَارِي تَعَالَى فِي الْعَدِيدِ مِنْ آيَاتِ الْكِتَابِ الْكَرِيمِ ﴿اسْجُدُوا لِأَدَمَ﴾ (البقرة ٣٤)، "فَكَأَنَّهُ تَعَالَى، لَمَّا خَلَقَهُ بَحِيثٌ يَكُونُ نَمُودَجًا لِلْمُبْدَعَاتِ كُلِّهَا بَلِ الْمَوْجُودَاتِ بِأَسْرِهَا، وَنُسْخَةً لِمَا فِي الْعَالَمِ الرَّوْحَانِيِّ وَالْجِسْمَانِيِّ، أَمْرُهُمُ بِالسُّجُودِ تَدْلِيلًا لِمَا رَأَوْا فِيهِ مِنْ عَظِيمِ

قدرته، وباهر آياته، وشكراً لما أنعم عليهم بواسطته" (البيضاوي).
﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (البقرة ٣٤)، ويصِفُ الْمُوحِّدُونَ
عَصِيَانَ الْأَمْرِ هَذَا بِالْمُضَادَّةِ، وَيُرْتُوهُ إِلَىٰ اخْتِلَافِ جَوْهَرِيٍّ فِي
الطَّبَاعِ هُوَ فِي أَسَاسِ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَبَيْنَ الْمَحْمُودِ
وَالْمَذْمُومِ، وَبَيْنَ الْمَعْرُوفِ وَالْمُنْكَرِ، وَبِمَعْنَىٰ أَعْمٍ، بَيْنَ التَّوْحِيدِ
وَالشَّرْكِ.

الضَّديَّةُ هَذِهِ، جَسَدَهَا إِبْلِيسُ بِالْخُبْثِ وَالْبُعْدِ عَنِ الْحَقِّ، وَعَدَمِ
الْإِمْتِنَالِ لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْ طَبَعِهِ، فِي بَعْضِ مَا وُصِفَ بِهِ
فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، الْأَمْرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالتَّضْلِيلِ وَالكَيْدِ وَالتَّوَسُّوسَةِ
وَالإِغْوَاءِ وَالمَعْصِيَةِ وَالفِتْنَةِ وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ، لِهَذَا ﴿كَانَ الشَّيْطَانُ
لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾ (الفرقان ٢٩)، أَي "يُخْذِلُهُ عَنِ الْحَقِّ، وَيَصْرِفُهُ عَنْهُ،
وَيَسْتَعْمِلُهُ فِي الْبَاطِلِ، وَيَدْعُوهُ إِلَيْهِ" (ابن كثير) وَ"يُؤَالِيهِ حَتَّىٰ يُؤَدِّيهِ
إِلَى الْهَلَاكِ ثُمَّ يَتْرُكُهُ وَلَا يَنْفَعُهُ" (البيضاوي).

إِنَّ طَبِيعَةَ الْعَقْلِ الْمُتَّصِلِ بِالْحَقَائِقِ اللَّطِيفَةِ هِيَ طَبِيعَةٌ حَاكِمَةٌ، فِي
حِينَ أَنَّهُ يَتَوَجَّبُ عَلَى النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ الْجَامِحَةِ عَنِ طَرِيقِ الْحَقِّ أَنْ
تَكُونَ مَحْكُومَةً، لَيْسَتْ تَقِيمُ مَسَلَكُ الْإِنْسَانِ فِي طَرِيقِ الْفَضِيلَةِ. وَقَدْ
مَثَّلَ أَحَدُ الْحُكَمَاءِ الْعَقْلَ بِقَائِدِ الْعَرَبَةِ الَّتِي يَقُودُهَا جَوَادَانِ.
فَالْعَرَبَةُ هِيَ الْجِسْمُ، وَالْجَوَادَانِ أَحَدُهُمَا قُوَّةُ الْغَضَبِ، وَالْآخَرُ قُوَّةُ
الشَّهْوَةِ، فَإِذَا جَمَعَا وَعَصِيَا الْقَائِدَ الَّذِي هُوَ الْعَقْلُ، ابْتَدَعَتِ الْعَرَبَةُ
عَنِ الْوُصُولِ إِلَىٰ غَايَةِ الطَّرِيقِ، وَجَنَحَتِ عَنِ السَّبِيلِ السَّوِيِّ

وُصُولًا إِلَى مَا لَا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ، ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الزمر ١٥). وكفى بالعقل ناصحًا أنه الموضح سبيل الحق، وقد قال الإمام عليّ (ع) في هذا المعنى: "كفأك من عقاك ما أوضح لك سبيل غيبك من رشديك".

العلم والعمل

يُرَدُّ الشُّبُوحُ الثَّقَاتُ قَوْلًا رَاسِخًا فِي عُقُولِهِمْ بِاعْتِبَارِهِ حِكْمَةً بِالْغَةِ فِي مَحَلِّ أَدَقِّ النَّصَائِحِ وَأَطْفَهَا: "عِلْمٌ بِلَا عَمَلٍ عَقِيمٌ، وَعَمَلٌ بِلَا عِلْمٍ سَقِيمٌ، وَعِلْمٌ وَعَمَلٌ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ". إِنَّ وَاجِبَ الْارْتِبَاطِ الْجَوْهَرِيِّ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ هُوَ قَاعِدَةٌ ضَرُورِيَّةٌ فِي قَلْبِ الْمَسْلُوكِ السَّلِيمِ مِنْ آفَاتِ الْغَفَلَةِ الْبَاطِنَةِ. ذَكَرَ الْأَمِيرُ السَّيِّدُ (ق) فِي إِحْدَى رِسَالَتِهِ "أَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ تَرَكَ الْعَمَلَ بِمَا يَعْلَمُ، وَأَعْلَمُ النَّاسِ مَنْ عَمَلَ بِمَا يَعْلَمُ، وَالْحُكْمُ جَازِمٌ بِأَنَّ الْعَالِمَ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ فَلَيْسَ بِعَالِمٍ". كَذَلِكَ، فَإِنَّ الشَّيْخَ الْفَاضِلَ حَذَرَ مِنْ خُطُورَةِ الْعِلْمِ وَإِثْمِهِ الْكَبِيرِ إِذَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِالْعَمَلِ وَالْإِخْلَاصِ فِيهِ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ (ع) أَنَّ لِسَانَ الْعِلْمِ يَعْبرُ عَنِ الْحَالِ وَالْحَرَامِ وَالْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ، وَهُوَ زِينُ الْمُؤْمِنِ وَفَضِيلَتُهُ (ختم الأنبياء). وَقَالَ عَنْ أَحَدِ الْحُكَمَاءِ نَاصِحًا: "لَيْكُنْ طَلِبُ الْعِلْمِ طَلِبَ دِرَايَةِ لَا طَلِبَ رَوَايَةِ، فَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيَصْرِفَ بِهِ وَجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَوْ يُجَالِسَ بِهِ الْأَمْرَاءَ، وَيُبَاهِي بِهِ النَّظْرَاءَ، أَوْ يَتَصَيَّدَ بِهِ الْحُطَامَ، فَتِجَارَتُهُ بَاطِرَةٌ،

وَصَفَّقَتْهُ خَاسِرَةً. " وَمِنْ نَصَائِحِ أَصْحَابِ الْفَضْلِ فِي تَفْضِيلِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ، قَوْلُهُمْ: "قَلِيلٌ مِنَ الْعِلْمِ مَعَ الْعَمَلِ بِهِ، خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْهُ مَعَ عَدَمِ الْعَمَلِ بِهِ".

الدنيا دار ممر لا دار مُستقر

إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْجَدَ الدُّنْيَا كَامِلَةَ النِّظَامِ لِإِرَادَةِ لَهُ فِيهَا، هِيَ الْإِنْسَانِ، لِإِرَادَةِ لَهُ مِنْهُ. وَقَدْ جَعَلَهَا فِي ظَاهِرِهَا مَحْبُوبَةً مَطْلُوبَةً، مَوْهُوبَةً مَسْلُوبَةً، وَجَعَلَ فِيهَا مَسَالِكَ وَمَهَالِكَ، كَمَا جَعَلَ لَهَا طَرِيقاً شَتَى مِنْهَا مَا يُحْمَدُ، وَمِنْهَا مَا يُذَمُّ. وَالْإِنْسَانُ مَحْتَاجٌ إِلَى الدُّنْيَا وَلَا غِنَى لَهُ عَنْهَا، فِيهَا غِذَاءُ جَسَدِهِ وَتَمَامُ قَصْدِهِ، وَجَعَلَ الْفُوزَ فِي تَجَاوُزِ عَقْبَاتِهَا.

هَذِهِ الدُّنْيَا وَصِفَتْ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ إِلَّا ﴿مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد: ٢٠) لِأَنَّهَا "مُعْرَضَةٌ لِلزَّوَالِ، غَيْرُ لَابِثَةٍ وَلَا مَآكِثَةٍ، فَمَنْ طَلَبَهَا لِذَاتِهَا قَسَا قَلْبُهُ، وَصَدَّتْ مَرَأَةً بِصِيرَتِهِ، وَالتَّبَسَّتْ فِي خَوَاطِرِهِ مَعَالِمُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ مَوْجِبَاتِ اكْتِسَابِ الْفَضِيلَةِ مِنْ جَانِبِ، وَبَيْنَ مَطْلَبَاتِ الْمَصَالِحِ الْأَنْثَانِيَةِ مِنْ جَانِبِ آخَرَ. وَمَنْ سَعَى فِيهَا فِي الْحَلَالِ، وَجَعَلَ فُرْصَتَهَا وَسِيلَةً لِبَدْلِ الْخَيْرِ، وَاقْتِنَاءِ الزَّادِ، وَنَفْعِ النَّاسِ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنَّهُ بِهَا وَفِيهَا وَمِنْهَا يَسْعَدُ السَّعَادَةَ الْكُبْرَى، وَيَتَبَوَّأُ مَقْعَدَهُ مِنَ النِّعَمِ فِي الدَّارِ الْآخِرَى، لِأَنَّهُ جَعَلَهَا سَبِيلَ

الجَنَّةَ، ومِضْمَارَ السَّبَّاقِ، ومِيدَانَ اللِّحَاقِ، وَمَتَجَرَ الاكْتِسَابِ،
وشِعَارَ ذَوِي الأَبَابِ، وَمَوْفَعَ العِلْمِ، ومُدَّةَ العَمَلِ، وَبَدْوَ الثَّوَابِ،
وفُرْصَةَ ذَوِي الهِمَّةِ، وَبَيْتَ الاجْتِهَادِ، ومَحَلَّ التَّقْوَى.

التَّوْبَةُ

قالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ
النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم ٣٠)، أَي أَخْلِصْ قِصْدَكَ لِلَّهِ، واحْفَظْ عَهْدَكَ مَعَ
اللَّهِ، واقْبَلِ إِلَيْهِ واستَقِمْ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْجَدَ الخَلْقَ وَفِي
طَبِيعَتِهِمُ الإِنْسَانِيَّةَ القُدْرَةَ عَلَى قَبولِ الحَقِّ، وَالْمَكْنَةَ مِنْ إدْرَاكِهِ،
والتَّهَيُّوءَ العَادِلَ لِيكُونَ مِنْ جُمْلَةِ ﴿الَّذِينَ يُؤْفِقُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا
يُنْقُضُونَ المِيثَاقَ﴾ (الرعد ٢٠)، وَهُوَ "مَا عَقَدُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ
الاعْتِرَافِ بِرُبُوبِيَّتِهِ حِينَ قالُوا بلى، أَوْ مَا عَهْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي
كُتُبِهِ" (البيضاوي).

إِنَّ ارْتِكَابَ الذُّنُوبِ وَالْإِثْمِ يُورِثُ فاعِلُهُ العَجْزَ عَن دَرِكِ العِبَادَةِ،
وَيُصَيِّرُهُ عَرَضًا مِنْ عَالَمِ الحِسِّ وَالهَوَى، وَيُخْرِجُهُ مِنْ غَايَاتِ
المَعَانِي، وَيُعِدُّهُ عَن كَنَفِ الأُنْسِ بِالخَيْرَاتِ المَعنَوِيَّةِ إِلَى وَحْشَةِ
الحَيْرَةِ وَالتَّكْلُفِ كما أَوْضَحَهُ الأَمِيرُ السَيِّدُ (ق) بِأَفْصَحِ العِبَارَاتِ.
لِذَلِكَ، كَانَتِ التَّوْبَةُ بَابًا مِنْ أَبْوابِ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي وَسِعَتِ كُلَّ شَيْءٍ،

بَلْ مِنَ الْأَبْوَابِ إِلَى مَحَبَّتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة ٢٢٢).

والتَّوْبَةُ هِيَ تَرْكُ الذَّنْبِ عَلَى أَجْمَلِ الْوُجُوهِ، يَعْنِي بِالاعْتِرَافِ وَالنَّدَمِ وَالْإِقْلَاعِ. وَالتَّوْبَةُ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: "أَنْ تَبْدَلَ بَدَلَ الْجَهْلِ الْعِلْمَ، وَبَدَلَ النَّسْيَانِ الذِّكْرَ، وَبَدَلَ الْمَعْصِيَةِ الطَّاعَةَ". وَهِيَ الرَّجُوعُ عَنِ الْمَذْمُومَاتِ فِي الشَّرْعِ إِلَى الْمَحْمُودَاتِ فِيهِ، أَيْ مِنَ الْمَخَالَفَةِ إِلَى الْمَوَافَقَةِ، وَمَنِ الطَّبَعِ إِلَى الشَّرْعِ، وَمِنَ الْغَفْلَةِ عَنِ الْحَقِّ إِلَى السَّعْيِ فِيهِ، قَبُولاً لِأَمْرِ إِلَهِ الْعَالَمِينَ فِي قَوْلِهِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ (التَّحْرِيمِ ٨)، وَالتَّوْبَةُ النَّصُوحُ هِيَ تَوْثِيقُ الْعَزْمِ عَلَى الْأَلَّا يَعُودَ بِمِثْلِهِ، وَهِيَ "مِنْ أَعْمَالِ الْقَلْبِ، يَعْنِي تَنْزِيهِ الْقَلْبِ عَنِ الذُّنُوبِ، وَعِلَامَتُهَا أَنْ يَكْرَهُ الْعَبْدُ الْمَعْصِيَةَ وَيَسْتَقْبِحَهَا، فَلَا تَخْطُرُ عَلَى بَالِهِ، وَلَا تَرُدُّ فِي خَاطِرِهِ أَصْلًا (التَّهَانُوتِي).

الفصل الرابع المسلك الروحاني البسيط

الصدق

يعتبرُ الموحِّدون أنَّ الصِّدْقَ هوَ "عمادُ الأمر، وبِهِ تَمَامُهُ"، قالَ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة ١١٩)، قيل: هُمُ الَّذِينَ اسْتَوَتْ ظَوَاهِرُهُمْ مَعَ بَوَاطِنِهِمْ. والمعنى الأشمل للصدق عندهم هو التصديق بخالق الكون الأحد، وبأصفيائه الأنبياء، وبرسالاتهم التوحيدية، وباليوم الآخر، وبأن الخير غاية الكون، وبأن الحق هو الغرض من خلق الإنسان، وبأن السعي في تحقيق خصال الخير هو السبيل إلى رضى الله حيث السعادة التي هي الثواب الأعظم. لذلك، يكون الثبات في قول الصدق ثمرة حسن الاعتقاد، وصفاء القلب، ونقاء النية، والرسوخ الحميد في استكناه معنى الفضيلة والالتزام بموجباتها.

تتعدُّ أمورُ المسلك عند الموحِّدين بالصدق، فهو كالنواة التي لا يصحُّ دون صلاحها دين. لذلك، تزخرُ الآثارُ الوعظية لثقات الموحِّدين بالحثِّ على إِبْلَاءِ أمرِ الصدق في الأقوال والأفعال العناية القصوى. والصادق عند الشيخ الفاضل هو المتقي الذي إذا قال قال الله، وإذا عمل عمل الله، في السرِّ، أي في أعمال القلب، ونقاء السرِّ وصفاه، وفي العلانية، وهو ما يظهر من أفعال الجوارح.

تَهْذِيبُ الْأَخْلَاقِ وَاسْتِشْعَارُ الْخَلْقِ

التَّسْلِيمُ عِنْدَ الْأَمِيرِ السَّيِّدِ (ق) هُوَ الْفِعْلُ الَّذِي يُقَدِّمُ عَلَيْهِ الْمَرْءُ بَعْدَ الرِّضَى بِعَهْدِ اللَّهِ الْمُتَمَثِّلِ بِحُسْنِ الْإِعْتِقَادِ، وَقَوَاعِدِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ الدِّينِيَّةِ. وَبَعْدَ أَنْ يُؤَكِّدَ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ الْمَوَاجِبِ اللَّازِمَةِ عَلَى السَّالِكِ الْمُرِيدِ هُوَ مَعْرِفَةُ النَّفْسِ مَدْخَلًا إِلَى السَّبِيلِ الْقَائِدِ إِلَى تَحْقِيقِ الْفَضِيلَةِ وَالثَّبَاتِ، يُحَدِّدُ الْقَاعِدَةَ الَّتِي هِيَ "الْيَنْبُوعُ الْأَعْظَمُ" لِفِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَالَّتِي اعْتَبَرَهَا الشَّيْخُ الْفَاضِلُ أَنَّهَا "أَسَاسُ الْخَيْرِ كُلِّهِ"، وَهِيَ "تَهْذِيبُ الْأَخْلَاقِ وَاسْتِشْعَارُ الْخَلْقِ".

وَأَسْمَى الْأَفْعَالَ الْأَخْلَاقِيَّةَ عِنْدَ الْمُوَحِّدِينَ هِيَ الْفَضْلُ، أَي بَذْلُ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانَ وَالْمَعْرُوفَ لِوَجْهِ اللَّهِ بِخَالِصِ النِّيَّةِ، وَأَصْلُ الْفَضْلِ هُوَ ﴿بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (آل عمران ٧٣). وَالشَّرْفُ وَهُوَ فِي الْمَعْنَى الْمَسْلُكِي سُمُومٌ وَارْتِفَاءٌ عَنِ الْغَايَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ إِلَى التَّعَلُّقِ بِالْفَضِيلَةِ وَمُوجِبَاتِ تَحْقِيقِهَا فِي الْقَلْبِ. وَالْعَفَافُ وَهُوَ الْكَفُّ عَمَّا لَا يَحِلُّ، وَعَنْ طَلَبِ الْحُطُوطِ، وَضَبْطِ النَّفْسِ عَنِ النَّزْوَعِ إِلَى شَهْوَاتِهَا، وَاجْتِنَابِ السَّرْفِ، وَقَصْدِ الْإِعْتِدَالِ.

وَالْبَابُ الْأَعْدَلُ لِتَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ هُوَ النَّقْوَى، لِأَنَّ فِيهَا جَمَاعَ الْخَيْرِ كُلِّهِ كَمَا وَرَدَ فِي آثَارِ الشَّيْخِ الْفَاضِلِ، الَّذِي عَدَّدَ الشَّرُوطَ الْوَاجِبَةَ عَلَى كُلِّ مَنْ أَرَادَ الْخَيْرَ، وَمِنْهَا: مَعْرِفَةُ الْفَرَائِضِ الْإِلَهِيَّةِ،

والمَوَاجِبِ الدِّينِيَّةِ، وحُسْنِ المُعَامَلَةِ، وحُسْنِ الخُلُقِ، وتركِ الزَّيِّنَةِ
والتَّكْبُرِ والحَسَدِ والغِيْبَةِ والنَّمِيمَةِ، والتَّحَرُّزِ مِنْ حُبِّ المَجْدِ والجَاهِ
وطلبِ الرِّئَاسَةِ.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ

الأخوةُ الرُّوحِيَّةُ ترعاهما آدابُ الدِّينِ وأوامرُه ونواهيه، وهي حقولُ
المسالكِ التي يُعبَّرُ بِهَا الموحِّدُ عَن مَدَى ارْتِبَاطِ آثارِ العَقْلِ،
التي هي هُنَا عُلُومُ الدِّينِ اللطيفةِ، بالنَّفْسِ وَمَا تُظهِرُهُ مِنْ أَعْمَالِ،
ذَلِكَ أَنَّ عِلَاقَةَ المُؤْمِنِ بِأَخِيهِ المُؤْمِنِ تَتَطَلَّبُ حِفْظَ العُهُودِ،
وصيانةَ الذَّمِّ، ومواظبةَ الخِدْمَةِ، وقضاءَ الحَوَائِجِ، وَمَحْضَ المَحَبَّةِ،
وَالذَّبَّ عَنْهُ بِالمَالِ وَالْيَدِ واللِّسَانِ، وإدراكِ المِيزَةِ بِمِيزَانِ العِلْمِ
وَالعَمَلِ وَالعِفَّةِ عَنِ الرِّزْلِ. كَمَا تَتَطَلَّبُ إِسْدَاءَ النُّصْحِ، وَالتَّنَزُّهُ عَنِ
الغِيْبَةِ والنَّمِيمَةِ، ومعرفةَ مَنزِلَةِ المُفِيدِ الفَاضِلِ لِاسْتِدْرَاكِ حُسْنِ
الِاقْتِدَاءِ وَالمُشَابَهَةِ لِقولِهِ "المؤمنُ مرآةُ المؤمنِ".

لِهَذَا، يَرْتَقِي المُوَحِّدُونَ بِمَعْنَى الأَخُوَّةِ إِلَى حَدِّ اعْتِبَارِهَا امْتِحَانًا
حَقِيقِيًّا لِمَدَى تَزْكِيَةِ النَّفْسِ، وَاخْتِبَارًا حَاسِمًا لِمَدَى انطِبَاقِ الأَفْعَالِ
النَّاجِزَةِ عَلَى الأَقْوَالِ الوَاعِدَةِ.

التربية

يُعرَّفُ مفهومُ الزواجِ عندَ إجراءِ العقدِ وفق طُقوسِ الموحِّدين بأنَّهُ "سُنَّةٌ من سُننِ الأنبياءِ، وشرعةٌ من شرائعِ البقاءِ، وصونٌ عن الفحشاءِ، ووقايةٌ من ربِّ الأرضِ والسماءِ.

يقولُ الأميرُ السيِّدُ (ق) إنَّ طريقَ الزواجِ ركنٌ عظيمٌ في الدِّينِ، قاعدته الرِّضى، وغايته الائتلاف. وهذا أمرٌ تأسيسيٌّ لنواة المجتمعِ الأولى: الأسرة. ولا يؤسِّسُ العاقلُ صورةَ حياته ومستقبلها فوق جُرْفِ هارٍ، وإنَّما على بيِّنةٍ راسخةٍ من حسنِ التدبيرِ، وأهمِّها الوعى ووحدَةَ القلبِ والعقلِ معًا.

إنَّ تثبيتَ أوامرِ الكنفِ العائليِّ بالألفةِ والتفهُّمِ والتفاهُمِ وتبادلِ العلاقاتِ الواعيةِ، وتوفيرِ الأجواءِ الهادئةِ والرَّشيدةِ داخلِ حرمةِ البيتِ الأسريِّ وما شابهها من أمورٍ، من شأنه أن يوطِّدَ أسُسَ التربيةِ السليمةِ التي تسهمُ في بناءِ شخصيَّةِ إنسانيَّةِ مستقرَّةٍ وقادرةٍ لاحقًا على مجابهةِ تحدياتِ الحياةِ العمليَّةِ والفكريَّةِ وتطورِّها الروحيِّ المستقيمِ لتجنبِ مخاطرِ الفسادِ مهما بلغت نظرياتِ التطورِ العلميِّ والتقنيِّ على كافةِ المستوياتِ.

لقد أوصَى الأفاضلُ الثَّقَاتُ بتعليمِ الأبناءِ منذ بدو نشوهم قولَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لدى المباشرةِ بأيِّ عملٍ، ومثله قولُ

﴿الحمد لله رب العالمين﴾ لدى الانتهاء منه بداية لطريق الهداية والارشاد. إنَّ اكتسابَ هذه العادة الجلييلة، وما يتبعها من التذكير الدائم برفعة المسلك الخُلقي الحميد، يزرع في النفوس وفي القلوب بذورَ الاستشعار، ويفتح البابَ لسوانح البركة والتوفيق، ويكسب النفس سجايا الخير والحياء والأدب، فلا تنزلق بسهولة، عند أولى التجارب، في التشبه بمعشر السوء، والتعلق برغباتٍ مُفسدة للمروءة، وهاذيمة لطريق بناء المستقبل كما قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿انما اموالكم واولادكم فتنة﴾ (سورة التغابن ١٥) والمقصود هنا الولد العاق والمال الذي جُمع من الحرام.

إنَّ التربية العائليَّة الرشيَّدة، هي الكنف الأوَّل الحاضِن للنفوس اليانعة لأبنائنا الأعزَّاء الأحبَّاء، وهي التي تبني المداميك الراسخة الصلبة لكيانهم الإنساني، وهي التي تُمهِّد السُّبُلَ لفسحة العقل عند النَّضوج، لفهم المسائل الكبرى المتعلقة بمصير الإنسان ومثوله أمام خالقه. واهمها محاسبة النفس فيبيني في ذاته معبداً قبل ذهابه إلى المعبد. ولا بد لتحقيق ذلك من تربية مكتملة تجمع بين غذاء الجسد وغذاء الروح. انه ادب الحياة بجناحيه ومن ظن ان التربية تجري حسب الأهواء ولا يضبطها نظام فقد ظن سوءاً.

الرُّضَى

لُغَةً، هُوَ الْاِخْتِيَارُ وَالْقَبُولُ، فَإِذَا تَحَقَّقَ خُلُقًا تَوْحِيدِيًّا كَانَ ثَمَرَةً مِنْ ثَمَرَاتِ الْمَعْرِفَةِ الرَّوْحِيَّةِ الْمَتَرْتِبَةِ عَنِ الْيَقِينِ بِالْحَقِّ، الْمَوْلَدَةِ لِاسْتِشْعَارِ وُجُودِ اللَّهِ وَتَنْزِيهِهِ. وَالْمَعْرِفَةُ فِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ تَمَلُّأُ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ بِالْمَحَبَّةِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، فَيَصِيرُ الرُّضَى كَمَا يَقُولُ السَّالِكُونَ "سُرُورَ الْقَلْبِ بِمَرِّ الْقَضَاءِ، وَسُكُونَهُ تَحْتَ جَرِيَانِ الْحُكْمِ بِمَا أَرَادَ مَنْ لَهُ الْمُلْكُ". فَمَنْ رَضِيَ قَانِتًا، كَانَ مِنَ الَّذِينَ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (البينة ٨)، فَرَضَى الْعَبْدَ عَنِ اللَّهِ أَنْ لَا يَكْرَهُ مَا يَجْرِي بِهِ قَضَاؤُهُ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْعَبْدِ هُوَ أَنْ يَرَاهُ مُؤْتَمِرًا بِأَمْرِهِ وَمُنْتَهِيًّا عَنِ نَهْيِهِ.

التَّسْلِيمُ

لَمَّا كَانَ الرُّضَى مَتَرْتِبًا عَنِ الْمَعْرِفَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْقَبُولِ، كَانَتْ ثَمَرَتُهُ التَّسْلِيمُ، وَهُوَ الْفِعْلُ وَالِاتِّزَامُ الْمَسْلُكِيُّ بِمَا ثَبَتَ لِلنَّفْسِ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى طَبْعِهَا، مِثْلَ لَزُومِ الْحِلْمِ مَكَانَ الطَّيْشِ، وَالْعَقْلِ مَكَانَ الْجَهْلِ، وَالتَّوَاضُّعِ مَكَانَ الْكِبَرِ، وَالتَّحَلِّيِ بِالْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ عَوْضَ النَّزْوَعِ نَحْوَ النَّزَقِ وَاللَّجَاجَةِ وَإِفْرَاطِ الرَّغْبَةِ. وَهَذِهِ الْأَفْعَالُ الشَّرِيفَةُ قَائِدَةٌ حَتْمًا، مَعَ صِدْقِ النَّوَايَا وَإِخْلَاصِ الْقَلْبِ، إِلَى الْقُرْبِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (الواقعة ١١)، "أَيُّ الَّذِينَ قَرَبَتْ دَرَجَاتِهِمْ،

وَأَعْلَيْتَ مَرَاتِبَهُمْ، وَرَقَيْتَ إِلَى حَظَائِرِ الْقُدْسِ نَفُوسَهُمُ الزَّكِيَّةَ" (روح
البيان). ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (الواقعة ١١).

تسليمُ الوجهِ لله بإخلاقِ النَّفْسِ له، والرضى بقضائه في السراء
والضراء، والإتيان بالحسنات، وترك السيئات، وبالإجمال كما قال
القشيري: "لم يدخر شيئاً عن الله، لا من ماله ولا من جسده، ولا
من روحه ولا من جلده، ولا من أهله ولا من ولده".

الفصل الخامس

خلاصة مفهوم مذهب التوحيد

الرؤية أو المشاهدة

عَلَّمَ جَبْرِيلُ النَّاسَ دِينَهُمْ لَمَّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ بَيْنَ النَّاسِ قَائِلًا: "مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ. قَالَ: مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَقْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ. قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ" (البخاري)، وَالْإِحْسَانُ هُوَ التَّوْحِيدُ.

وَفَسَّرَ ذَلِكَ ابْنُ الْقَيِّمِ، قَالَ: "هُوَ أَلَّا تَزَالِ الْمُشَاهَدَةَ أَبَدًا، وَلَا تَخْلُطَ بِهِمَّتِكَ أَحَدًا" (مدارج السالكين). وَالْحَقِيقَةُ الَّتِي لَا تَغِيْبُ عَنْ قَلْبِ الْمُوحِدِ هِيَ أَنَّ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور ٣٥)، وَأَنَّ ﴿مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور ٤٠)، وَأَنَّ هَذِهِ اللَّطَافَةَ اللَّدُنِّيَّةَ لَا يُدْرِكُ اسْتِبْصَارُهَا إِلَّا بِسُلُوكِ السُّبُلِ الْمُسْتَقِيمَةِ، وَتَحْقِيقِ الْفَضَائِلِ الشَّرِيفَةِ، وَبَدَلِ الذَّاتِ فِي صَالِحِ

الأعمال، وحميد الأحوال سعياً إلى ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ لقوله ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ (البقرة ١١٥)، ولقوله عزَّ من قائل ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ (الروم ٣٨). وهذا السعي المبارك سُمِّيَ في الكتاب العزيز ﴿كِدْحًا﴾، في قوله من سورة الانشقاق ﴿بَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كِدْحًا فَمَلَّاقِيهِ﴾ (الانشقاق ٦)، وهو الرضى أعظم الثواب. وأجلُّه في الآخرة ما ورد في الذكر الحكيم ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة ٢٢-٢٣).

إن أصل الاعتقاد لدى الموحدين هو الاقرار بوجود الله عز وجل واهب الوجود، وجوداً حقيقياً محضاً دائماً قائماً بذاته لأنه الحي القيوم الذي لا يشوبه العدم ولا يعتوره التعطيل. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص).

ثم تنزيه الذات العلية عن الماهية، وتقديس صفاته تعالى عن الكيفية، وأن الوجود لا يخلو منه طرفة عين ﴿وَمَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا وَهُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا وَهُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ (المجادلة ٧) وجوداً متعالياً عن الحد والكمية.

وأن معرفة الله عز وجل هي أعظم المفترضات وأجل المذخرات.

ولا بد للعبد من معرفة معبوده وللمخلوق من تسبيح خالقه
وللمرزوق من حمد رازقه معرفة جزئية وإدراكاً محدوداً من حيث
الإنسان لتقوم الحجة وتتم النعمة.

وفي مسلك التوحيد فعبادة الله عز وجل شوقاً إلى رؤيته في الدار
الباقية أسمى أهداف العبادة كما قالت سيدة نساء العالمين فاطمة
الزهراء (ر) ساعة النزاع: إليك ربي لا إلى النار، ولم تقل إلى
الجنة.

الفصلُ السادس

أمرُ الحلالِ والحرامِ

عرفت كثيرٌ من الشعوبِ القديمةِ العديدَ من أنواعِ الإباحتِ التي ساهمت في نهايةِ المطافِ في انحطاطِها وتهاؤفت بنيانها. فكانت الرسائلُ السماويةُ ﴿شريعةً ومنهاجاً﴾ (المائدة: ٤٨)، أخرجت شعوباً بأسرها من ظلمات الجهلِ إلى نورِ الحضاراتِ الإنسانيةِ المشهورةِ. وكان أمرُ الحلالِ والحرامِ والتمييزُ بينهما، في كلِّ منها، قوامَ الدينِ، ودليلَ الإيمانِ، وميزانَ الصدقِ الذي به يصحُّ مسلكُ المرءِ أو يلتبس عليه. إنَّ الله سبحانه وتعالى، أرادَ بالتَّحليلِ والتَّحريمِ الرَّحمةَ بعبادِهِ لحكمةٍ منه بِالغَةِ متعلِّقةٌ بخيرِ النَّاسِ أنفسهم، فلم يُحِلَّ سبحانه إلا طيباً، ولم يُحرِّم إلا خبيثاً، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لِرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٤٣).

إنَّ من واجباتِ الموحِّدِ شرعاً حفظَ العقلِ، وحفظَ النَّفْسِ، وحفظَ المحارمِ، وحفظَ الدينِ، وحفظَ المالِ، لأنَّ بهذِهِ العَطَايَا تستقيمُ الحياةُ، وبها يكونُ المرءُ قادراً على تحقيقِ الغَايَةِ من وجودِهِ وفقِ قوله تعالى ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

إِنَّ قَوَاعِدَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ تُسْتَمَدُّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ الْمُبِينِ الَّذِي يَفْصَلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالَّذِي هُوَ ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥)، لِذَلِكَ، فَإِنَّ الْحَلَالَ مَا حَلَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَهُ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (الأحزاب: ٤).

الزَّوْج

تَضْمَنَ قَانُونُ الْأَحْوَالِ الشَّخْصِيَّةِ لَطَائِفَةَ الْمُوَحِّدِينَ الدَّرُوزِ الْعَدِيدَ الْقَوَاعِدَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِقَضَايَا الْخُطْبَةِ، وَالزَّوْجِ، وَالطَّلَاقِ، وَالْحَجْرِ، وَالْوَصَايَةِ، وَالْوَصِيَّةِ، وَالْإِرْثِ وَغَيْرَهَا. وَقَدْ اعْتَمَدَتِ تَشْرِيعَاتُ الزَّوْجِ عَلَى مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ آيَاتٍ طَيِّبَاتٍ، وَمَا وَرَدَ مِنْ شَرِيفِ الْحَدِيثِ فِي الْحَثِّ عَلَى الزَّوْجِ وَضَوَابِطِهِ. وَقَدْ تَمَّ اخْتِيَارُ مَسَلِكِ التَّحْفِظِ وَالْحَيْطَةِ فِي مَسْأَلَةِ تَعُدُّدِ الزَّوْجَاتِ، فَاعْتَمِدَ الْاِكْتِفَاءُ بِالزَّوْجَةِ الْوَاحِدَةِ اسْتِنَادًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (النساء: ٣)، ثُمَّ قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿وَكُنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَكُوْ حَرَصْتُمْ﴾ (النساء: ١٢٩). كَذَلِكَ تَمَّ اعْتِمَادُ عَدَمِ جَوَازِ إِعَادَةِ الْمَطْلُوقَةِ اجْتِهَادًا إِلَى إِمْكَانِيَّةِ الْوُصُولِ لِلطَّلَاقِ الْبَائِنِ وَالنِّهَائِيِّ بَعْدَ مَرَاعَاةِ كَامِلِ التَّدْرِجِ فِي مَعَالِجَةِ الْخِلَافِ الزَّوْجِيِّ وَفَقًّا لِلآيَاتِ التَّفْصِيلِيَّةِ الْوَارِدَةِ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ (٣٤-٣٥).

المحارم

إِنَّ مَا يَحْرُمُ التَّزْوِجَ بِهِنَّ مِنَ النِّسَاءِ عِنْدَ الْمُوحِدِينَ مَعِينٌ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَاللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (سورة النساء ٢٣)•

كذلك تحرم المرأة المتزوجة ما دامت في عصمة زوجها، وتحرم المرأة التي لم تستوفِ عدتها (أربعة أشهر) إما بطلاق من زوجها أو موت. وكذلك زوجة الأب، فإنها تحرم على ابن زوجها كما جاء في الآية ٢٢ من سورة النساء.

وعدّ الموحّدون الزنى من الكبائر التي يؤدّي ارتكابها إلى الضرر الروحيّ البالغ، لذلك فهو محرّم استنادًا في الأصل إلى الرسالات السماوية ووصايا الأنبياء، وأيضًا لما يمكن أن يترتب عليه من اختلاط الأنساب، وانحلال الأسر، وتفكك الروابط، وانتشار الأمراض، وأيضًا، لما يسببه من انطماش بصيرة مُرتكبه الذي

يعدم اكتساب لطافة الفائدة الروحية، "فلا يستلذ بكلام الحق، ولا يستحليه، وإن كثر ترداده على لسانه" كما ذكر الشيخ الفاضل.

إن اللائق بالمرأة الموحدة، وفقاً لأدبيات الثقافات، أن تكون عاقلة، رصينة، عفيفة، ذات حياء، صادقة، تصون كرامتها بشجاعة، وتتجنب كل ما قد يسيء إليها من اختلاء بغير محرم، أو من لباس غير محتشم. وتكون متمسكةً بواجباتها العائلية والدينية، ملتزمةً بشروط الزواج والإنجاب والتربية الصالحة. وفي كل حال، تكون مستشعرةً وجود الخالق، متشوقةً إلى اكتساب المعرفة اللطيفة لتضيء سراج سجايا الخير في روحها، ويكون باستطاعتها تفهم المعاني السامية للتربية المستقيمة.

إن غاية الحرية في المفهوم التوحيدي أن يحقق الإنسان فضيلة ذاته بالحق، كما جاء في قول السيد المسيح "إعرفوا الحق والحق يحرركم".

ومن الأمور التي تدخل في باب ارتكاب الحرام كل أنواع العلاقات الشاذة كالزواج المثلي، والمساكنة وغيره. وبالإجمال، فإن الرؤية الأخلاقية للموحدين، من حيث هي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً وضرورياً بقاعدة الترقّي في العلوم المثمرة، واقتباس اللطائف العقلية السامية، واستخدام الجوارح فيما خلقت له من دون انزلاق في الإفراط المؤذي، والتلهي فيما يطمس بصيرة القلب،

كل ذلك يُسهم في تحديد الموقف أيضاً من أمورٍ متعدّدة منها عدم الاحتشام في اختيار الأزياء والألبسة، خصوصاً عند النساء، ومنها الاختلاء بين الجنسين مع عدم وجود محرم، ومنها أيضاً الموقف من القضايا المندرجة تحت عنوان "الأخلاق الطيّبة" مثل الإجهاض، والموت الرحيم، والاستيساخ وما شاكل، وكلّها تُعتبر دخولاً في بابٍ من أبواب الحرام.

أما فيما يتعلّق بالأولاد، فإن نسبهم يعود إلى والدهم، ويُنسب الولد إلى والديه المتزوّجين زواجاً شرعيّاً. أما فكرة التبني فقد تمّ رفضها في أوساط الموحّدين الدروز، لما يُمكن أن يترتّب عنها من مشاكلٍ أُسريّة.

المخدّرات

المخدّرات آفة محرّمة لما تسبّبهُ من أضرار صحيّة وعقليّة وروحيّة وأدبيّة واقتصاديّة واجتماعيّة، والرّسول ﷺ يقول: "لا ضرر ولا ضرار"، لذلك تحرّم المخدّرات بمشقتها، بقاعدة دفع الشرّ وصدّ ذرائع الفساد.

يستشعرُ العديد من مؤسّسات المجتمع المدنيّ أخطار هذه الآفة المتفشّية في المجتمعات المعاصرة، ويعبّرُ أهلُ الاختصاص عن المدى الخطير الذي تستحضره المشكلة، وكما يقولُ أحدهم: "إنّ

المخدرات تهلك الأرواح والمجتمعات، وتقوّض التنمية البشرية المستدامة وتولّد الإجرام، وهي تمسّ جميع قطاعات المجتمع في كلّ البلدان مؤثّرة على وجه الخصوص في حرّية ونموّ الشباب الذين يمثّلون أعلى ثروة يملكها العالم... ليس للمشكلة بُعدٌ شخصيٌّ بل أيضًا أبعاد اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية بحيث يُصبح تنفيذ استراتيجية خلق ثقافة مضادّة للمخدرات جزءًا لا يتجزأ من تنفيذ الاستراتيجيات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والصحية والثقافية.

عُقدت العديد من المؤتمرات الإسلامية لمعالجة تحديات هذه الآفة. وتمحورت مقرراتها حول مفاهيم إصلاح نظام التعليم والتربية، ودعوة الأسرة إلى النهوض بواجبها، ورعاية الشباب، وإنشاء مركز علمي دولي للأبحاث وما إلى ذلك، وصعدت اللمحة لدى حديثها عن المهريين والمروحين والمتاجرين مطالبة بتوقيع أقصى العقوبات عليهم.

وفي الرؤية الأخلاقية التوحيدية، يُعتبر العقل والجسد من نعم الله الكبرى، لذلك كان واجب الحفاظ على سلامتهما من الفرائض اللازمة، لارتباط ذلك بصحة المسلك ذاته. إنّ ما يؤذي العقل بالتشويش عليه، وبتعمّد تعطيل حركته الفكرية، وقدرته على الاستنباط والتحليل، لهو أمر لا يقرّه دين، ولا يسلم به قانون. كذلك، فإنّ تلويث بيئة الجسد بفعل استخدام المواد المخدرة هو

هدمٌ للنَّعمَةِ المُعطاة للإنسان، وتدميرٌ لمستقبل الحياة، والارتيماء في هَويَّةٍ لا يسلمُ منها إلا ما رحم الله عزَّ وجلَّ. وفي كلِّ حال، فإنَّ هذه المسألة تتطلَّب تضامراً جُهود الجميع لدرء خطرهما، والحدِّ من انتشارهما، ورعاية ضحاياها بردهم إلى الثَّقة بالحياة، والاقتصاص من المتأجرين بها بما يصون المجتمع من شرِّهم.

التدخين

مضار التدخين (وإدمان النارجيلة) يتفاقم في ناحيتين: إتلاف الجسم وإسقامه، وذهابه بالمال وإهداره. وبما أنه من الثَّابت علمياً وطبياً بما لا يدع مجالاً للشك وقوع ضرر التدخين بالنفس والمال، وقد جعلهما الله وديعتين عند كل إنسان، فإن المسؤولية بين يدي الله تعالى عنهما يوم لقائه مسؤولية كبرى.

الأمر الاجتماعي

أما فيما يتعلق بالأمر الاجتماعي، فإن تاريخ وتراث هذه الطائفة الشريفة هو خير شاهد على مدى تأصل أبناء طائفة الموحدين الدروز بالعادات والتقاليد والتراث العريق والقيم الإنسانية النبيلة. هذه القيم لا تتبدل في زمان أو مكان سواء في التاريخ القديم أو الحضارات المعاصرة.

وقد شدّدت تعاليمُ الموحّدين وأدبيّاتهم على ضرورة الامتثال بالمثل الأخلاقي، والالتزام بالفضيلة مسلّكيا وعمليا، وبالتالي اجتتاب الكثير من الأفعال والأقوال المنافية للأخلاق والقيم والآداب الإنسانية: كالقتل (الجائر منه الدفاع عن العِرض والنفس والمال)، والانتحار، والسرقَة، وشهادة الزور، والظلم (البغي)، والغيبة، والنميمة، والخيانة، والتجسس، والرشوة، والغش، والرياء، والفحش، والغدر، والكذب، والتعصب، والحسد، والربا، وارتكاب الذنوب، والتعدي على مال اليتيم، والتعدي على مال الأوقاف، كلها أمور محرّمة عند الموحّدين الدروز عملاً بحدود الدّين الحنيف.

أما في موضوع وهب الأعضاء، فإنّه يُترك للموحّد اتخاذ القرار المناسب من خلال قاعدة التخيير في الأعمال وقاعدة اكتساب الخير والشر من خلال جوارح الإنسان، وبعد الاطّلاع على توصيات المؤتمرات الطبيّة الشرعيّة استئناساً وتبصّراً.

المأكل والمشرب

يُشدّد الموحّدون على ضرورة السّعي لكسب الطّعام والرّزق الحلال لقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (سورة البقرة ١٧٢). فأما

الحرام في مسألة المأكَل والمشرب عندهم فهو معيّن في آياتِ
كريمة منها:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ
اللَّهِ﴾ (سورة البقرة ١٧٣)، و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ
وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ﴾ (سورة المائدة ٩٠).

ومن الواجب أيضاً عند الموحدين الدروز ذكر اسم الله سبحانه
وتعالى عند بداية تناول الطعام، وفي كل موقف يتوجب ذكره،
ومنها ذبح الأنعام والمواشي وذلك لقوله تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (سورة الأنعام ١١٩)، فإن
ذكره تعالى عند ابتداء تناول الطعام هو تذكُّر وشكر لنعم الله عزَّ
وجلَّ التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، وكذلك عند الذبح لأن الذبائح لا تحلَّ
إلا باسم الله وحده.

الإيضاء والإرث

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ
أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ
حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة ١٨٠).

إنَّ الموحدين الدروز انطلقاً من هذه الآية يرون أنَّ الوصيةَ واجبةٌ على كلِّ مُوحِّدٍ، ويتميِّزون في حريَّة الإيصاء وفقاً لقاعدة التخيير في الأعمال.

في حال عدم وجود وصية، يُعتمد في توزيع الإرث على المذهب الحنفي. وقد نصَّت المادة ١٧١ من قانون تنظيم شؤون طائفة الموحدين الدروز الصادر بتاريخ ٢٤ شباط ١٩٤٨ على ما يلي: "إنَّه في جميع المسائل الداخلة في اختصاص قاضي المذهب والتي لم يرد عليها نصٌّ خاص في هذا القانون يُطبَّق القاضي المُشار إليه أحكام الشرع الإسلامي، المذهب الحنفي، وجميع النصوص القانونية التي لا تتعارض مع الشرع الإسلامي."

الفصل السابع

البعدُ الإنسانيُّ الكونيُّ

الحقيقةُ هيَ مرآةُ الموحدِّ في غايةِ القصدِ. لذا، فإنَّ قلبَهُ ولسانَهُ وجميعَ جوارحه متَّحدةٌ في انسجامٍ لطيفٍ لا تشوُّشٌ عليه التباساتُ المركَّب. والتركيبُ يتأتَّى من التناقضِ الناتجِ عن الفرقِ بين مضامينِ العلمِ وواقعِ الأفعالِ، واختلافِ النوايا عن ظاهرِ المسالكِ، والركونِ إلى نسبيَّةِ الرؤيةِ من أجلِ أن يصيرَ ثوبُ الحقيقةِ على قياسِ خاص. فلا عجبَ إذن أن يكونَ الصدِّقُ سيِّدَ الخصالِ الحميدةِ المطلوبةِ، وحُسنِ الخلقِ قاعدةً أساسيةً لتَهذيبِ الأخلاقِ، وتصفيَةِ القلبِ، واكتسابِ المزايا الشريفةِ.

المُوحَّدُ تعلَّم بعقله وقلبه وحسه أن يميِّزَ ويتفهَّم الفضيَّلةَ ويثقَ بها من حيثُ أنَّ بها وحدها تتحقَّق وحدةُ النفسِ المترنِّة التي بها يكونُ الإنسانُ إنساناً بالمعنى الأسمى المتعلِّقِ بالغايةِ من وجوده. إنَّ من شأنِ هذا التحقُّقِ الأشرفِ أن يهبَهُ قوةَ الإدراكِ، والوعيِّ، والرِّزانةِ، وسكونِ الرُّوحِ المطمئنةِ، والاستقرارِ الداخليِّ الذي هوَ حاجةٌ عزيزةٌ في قلبِ عالمٍ متأرجحٍ يعبرُ أكثرَ عصوره اضطراباً والتباساً ونزوعاً مقلِّفاً نحوَ دوامةِ النزقِ واللجاجةِ وتهافتِ الغرائزِ. يُدركُ المُوحَّدُ سرَّ النعمةِ والفضلِ فيمنَ أتى ﴿يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران ١٦٤)، ويوقنُ بأنَّ ﴿مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة ٢٦٩)، لذلك، فهوَ لا يفوتُ فرصةً

التَّعْلَمُ، وَطَلَبَ الْفَائِدَةَ، وَاكَتَسَابَ الْمَعْرِفَةَ، لَا لِمُجَرَّدِ أَخْذِ الْعِلْمِ، بَلْ لِمَسْتَدْرَاكِ الْأَمْرِ الْإِنْسَانِيِّ الْمُنْحَ، وَالتَّحَلِّيِّ بِخِصَالِ الْخَيْرِ الَّتِي تُنْبِرِ الْقَلْبَ وَالْعَقْلَ، وَتَأْخُذُ بِيَدِ الْإِنْسَانِ بِكُلِّ عَطْفٍ وَحُبِّ فِي أَيِّ مَكَانٍ وَزَمَنٍ، الَّذِي إِنْ خَذَلْتَهُ مَصَاعِبُ الْحَيَاةِ، وَأَوْحَشَتْهُ الْأَكْدَارُ، وَنَغَصَتْ عَلَيْهِ عَيْشُهُ الْهُمُومَ، فَلَسَوْفَ يَجْدُ فِي فَائِدَةٍ تِلْكَ الْخِصَالَ مَلَاذَهُ وَسَنَدَهُ وَسَبِيلَ الْخَلَاصِ.

تَمَثَّلُ حَرَكَةُ الْإِفَادَةِ وَالِاسْتِفَادَةِ فِي الْمَعْرِفَةِ التَّوْحِيدِيَّةِ أَصْلًا رَاسِخًا مِنْ أَصُولِ الْمَسْلُوكِ الصَّحِيحِ، حَيْثُ أَنَّ التَّعْلِيمَ الْمَثْمُرَ يَنْمُو بِالتَّرْبِيَّةِ الْحَسَنَةِ وَالْمُذَاكِرَةَ وَحُسْنَ الرَّعَايَةِ. إِنْ فِي صَمِيمِ غَايَاتِ التَّرْبِيَّةِ بِشَكْلِ عَامٍ، إِنْضَاجَ الشَّخْصِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ السَّوِيَّةِ الْمُتَمَكِّنَةِ بِقُوَّةِ سَجَايَاهَا الْخَيْرَةَ مِنْ مَوَاجَهَةِ مَخَاطِرِ وَقُوعِ الْأَبْنَاءِ الْأَعْرَاءِ فِي مَزَالِقِ الْإِبْتِدَالِ، وَالسُّطْحِيَّةِ، وَضَعْفِ التَّدْبِيرِ، وَفَقْدَانِ التَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ خَيْرٌ، وَمَا هُوَ مُؤَذٌّ وَضَارٌ.

يَقُولُ الْأَمِيرُ السَّيِّدُ (ق) فِي رِسَالَةٍ لَهُ لِأَحَدِ الْأَفْضَالِ مَا مَعْنَاهُ أَنْ لَيْسَ تَمَّ غُرْبَةٌ إِلَّا بِالْحُجْبَةِ عَنِ الْحَقِّ، لِأَنَّ الْمُحَقِّقِينَ غُرِبَتْهُمْ هِيَ حُجْبَتُهُمْ عَنِ اقْتِبَاسِ أَنْوَارِ الْحَقِيقَةِ، فَالْغُرْبَةُ هِيَ الْإِنْقِطَاعُ عَنِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ، وَالِانْتِصِرَافُ عَنِ فَائِدَةِ الْعَقْلِ، وَالرُّكُونُ إِلَى الْغَفْلَةِ. إِنَّهُ بِالْعَوْدَةِ إِلَى الْمَفَاهِيمِ الْبَسِيطَةِ الصَّادِقَةِ الْجَوْهَرِيَّةِ، وَالسَّعْيِ فِي إِيقَاطِ مَعْنَاهَا فِي النُّفُوسِ، لَهُوَ أَشْرَفُ الْأَعْمَالِ وَأَجْلَاهَا، لِأَنَّ انشِغَالَ الْمَرءِ فِي تَهْذِيبِ نَفْسِهِ وَجَوَازِحِهِ بِنِيَّةٍ صَادِقَةٍ، يَكْشِفُ بِصِيرَتِهِ، وَيُسَدِّدُ عَقْلَهُ، وَيَبْنِي رُوحَهُ فِي الْحَقِّ، وَهَذَا غَايَةُ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ.

الفصل الثامن

ماذا تقدم عقيدة التوحيد للشباب المعاصر؟

العقيدة هي هوية الروح، ومثال الفضيلة، وتثبيتاً للقيم الأخلاقية، ودروساً في تحلي النفس بالصفات الحميدة، ومرآة يقف إزاءها المريذ الشجاع، ليحاسب نفسه ويسائلها في سعي خيّر لتهذيبها وقودها إلى تحقيق الغاية من وجودها.

لكن ثمة مستوى أكثر عمقا للإجابة ذاتها يرينا جانباً غير مرئي، بالغ اللطافة، صعباً مستصعباً، لأن به سرّ مفتاح الحياة، بمعنى أن يدرك المرء ذاته في الزمان والمكان، عارفاً بما بين يديه، متيقظاً لما يدور حوله، متعلقاً بحقيقة المعرفة الروحانية، متنهياً إلى قيمة لحظة الوجود الثمينة التي يحيها، ماضياً قدماً باتجاه المستوى الاكتسابي والتحقيقي، أي السبيل الموصل إلى وعي بالبصيرة العاقلة إلى إدراك مغزى وجودنا في الحياة، ووعي بالحكمة التي من شأنها إرشادنا إلى طريق إشراق الحق في قلب العارف، غايتها السعادة الثابتة والأصيلة.

تقدم عقيدة التوحيد في كل عصر وزمان مثلاً عالياً لطلاب الحقيقة، ونوراً يمشى به بين الناس، ودليلاً ساطعاً إلى المعنى الإنساني والغاية من وجوده. تتأتى الصعوبة من أنه ليس في وسع المرء أن

يرى ما تقدّمه، إلا إذا ما أراد الحقيقةً حقاً بإخلاص قلب. الأمرُ أشبه برحلةٍ، يتركُ فيها المريدُ مكانه العرَضِيَّ، قاصداً وطناً باقياً، وكلَّ غفلةٍ عن الغاية التي من أجلها كانت الرحلة! وهذا هو استرسالٌ في تيه معضل.

إنه في ضوء تلك الحقائق اللطيفة، يتوجّبُ أن نستطلعَ بعضَ ما يُمكن أن تكتنّه بصائرنا من طبيّات العلم الحقيق، التي تعمر بها مائدة التوحيد وتقدّمه لنا غذاءً نورانياً في كلِّ حين.

العقل

إنّه من أجلِّ المواهب التي تُسهّل لنا فهمَ العقيدة فهماً صحيحاً، هو معرفة مفهوم "العقل" على الحقيقة. إنَّ إدراكَ معنى العقل إدراكاً دقيقاً يلتبسُ التباساً كاملاً في الإنطباع السائد عند العوام. فما هو العقل؟

يُعرّفُ العقلُ بطريقةً نسبية، فهو في المعاجم الغربية القدرةُ على المعرفة والحكم، وأهليّة الفكر السليم للعمل، واتخاذ القرارات، خصوصاً ما ارتكز منها على وقائع عملية؛ وهو ملكة التفكير وآلية شغلها، وثمة تمييز لافت بين العقل النظري والعقل العملي. وسُمِّي كذلك لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي يحبسه؛ وقيل هو التمييز، وعند الصوفيين هو جوهر نوراني، وفي المفهوم الزمّني العام هو المقدرة على فهم الأمور، وإنجاز التخطيط

والإتساع في العلوم النفعية الخ. وفي المفهوم الروحي العام هو نور شعشعاني تظهر إنسانيا ليكون شاهداً للحقيقة في كل عصر وزمان.

يقف البعض في حالة انبهارٍ مُذهلٍ أمام إنجازات الحضارة الحديثة عند رؤيتهم للمراكز التجارية، والأبراج العالية، وبُناة المدن العمالقة، والمجامع العلميّة، والجسور المعلّقة. وتسقط كلّ حجج جوهرية الروح، إذا ما توقّفوا مشدوهين أمام منتوجات التقنيات العالية في بلاغة التعقيد في تصاميمها وغيرها. وإذ يقرّ الشاهد بعظمة "العقل" يستهجن غياب إنجازاته عن الأمم المتخلّفة عن ركب التطور والتقدّم العلميّين.

إنّ السؤال الذي يُمكن أن تطرحه علينا آليات التطور في الحياة المعاصرة في مواجهة البحث عن التحقّق الروحي هو: ما الذي يُمكن أن تمنحه الحكمة القديمة لقلب الإنسان؟ وقد كرم الكتاب المُبين العقل وجعله في محلّ الصّدارة، عندما حثّ على التفكير والتدبّر، وإعمال العقل، كما قال تعالى: "إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون."

وما يمكن بالمقابل أن تمنحه إياه ظواهر "الحضارة الحديثة"؟

العقيدة لا تجزئ العقل إلى عمليّ ونظريّ، بل تعلّمنا أن ثمة درجات (مستويات) لتحقّق العقل عقلاً مكتملاً الأبعاد في قلب، الإنسان (والعقل هو القلبُ وفقاً لأحد معانيه التي يذكرها لسانُ

العرب، وهذا يوافق الحق). ما يدفعُ الطفلَ إلى الاحتماء من النار هو مستوى غريزيّ، وما يخوّله تلقّي الحرف وتعلُّم القراءة لاحقاً هو المستوى الطبيعي. إن العلوم المرتبطة بالطبيعة (العلوم البحتة والعلوم الانسانية واكتساب الخبرات العملية والتقنية...) يتمّ اكتسابها ارتباطاً بهذه المنزلة الطبيعية للعقل، وكثيراً من أوجه حياتنا مرتبطة بها وبمهاراتها، وبها تنتقلُ الأممُ من طور التخلف المادي إلى التقدم والازدهار. بها يربحُ الإنسانُ العالمَ. لكن! ينبغي على العاقل أن يتذكّر الوصيّة الذهبية: ماذا ينفع الإنسان إذا ربح العالم، أي إنجازات السيطرة على الطبيعة والتحكّم بثرواتها، وخسر نفسه ما لم تكن عادلة؟

تلك علوم لا تؤدّي بالضرورة إلى معرفة النفس ودقائق جدليتها بين نوازع الخير ونوازع الهوى، فالنفسُ جوهرٌ حي لا يتمّ التقدّم في معرفتها إلاّ بعلمٍ جوهريّ حيّ، هو علمُ الحقيقة، الذي يحققُ لنا منزلةً للعقل رقيقةً، تجعلنا نصبو إلى جمال العدالة.

منزلةُ العقل هذه، تُكتسبُ فقط بقدر ما يكون المرءُ سيّد نفسه. وذلك بثبات المرء في الصدق والمحبة والاجتناب والرّضى، بحيث تصير تلك المآثر خصالاً في الروح متأصلةً ومرتبطةً بالحق لا برؤية الناس.

والعقول الصافية كالبصر السليم، ومهما كان البصر سليماً فلا يبصر بالظلام، ومهما كان عقل الإنسان صافياً، لا يهتدي إلاّ بهدي

الكتاب المبين، وإذا ما اتحد العقل المهذب بفيوضات الشرع المباركة استوى ونضجت فطرته وبلغت الغاية.

إن من شأن إهمال التمييز بين مندرجات العقل وإعمال الفكر في مؤثراتها أن يفاقم اتساع الفجوة بين شرائح المجتمع، بين تلك التي تهمل الإتقان الطبيعي تطلعاً إلى الأرفع تحت شعار الروحانية، وتلك التي تهمل الأرفع انشغالاً بمفاتن العلم والوقوف دون غاياته تحت شعار الزمنية، في حين أن الحق يفرضُ توازناً للعقل بكلّيته.

إذا ما أدرك الجيل الصاعد سرَّ هذه المعادلة نتيجة حبّه للعدالة وتطلّعه إلى ما هو خيرٌ لوجوده ومستقبله في العالم لتمكّنَ إِنْ من تخطي المتاهات، وتوقّي العثرات، والمضيّ قَدْماً في تحقيق ما يعجزُ عن تحقيقه في الحالة الراهنة المتعثرّة.

الهوية

إنّ محاولات سير غور الأفكار بين أبناء الطائفة عموماً وعلاقتها بالهوية التوحيدية بصيغتها المعرفية الراقية، ليس في موضوع العقيدة وحسب، وإنما في الثقافة والتاريخ والفلسفة والسياسة أيضاً، تُفضي إلى نتائج يُمكن إيجازها عبر هذه الخلاصات التي توجب التعمّق ملياً في معنى دلالاتها، منها:

أ- إن التراتبية في المجتمع التوحيدي التي كانت قائمة على قواعد عشائرية صارمة في مواضع متعددة، يغمرها الإيمان

في كثير من جوانبها، مما جعل المجتمع شديد التماسك إضافة إلى الجذور العائلية لها الأثر الأكبر في امتثال الهوية المعرفية عبر الأجيال.

ب- إن التراث الشعبي وليس العقل الموضوعي لتاريخ الموحدين في بلاد الشام هو الذي يشكل الإنطباعات التي تسهم في امتثال الهوية المعرفية من جيل إلى جيل.

ج- إن مفاهيم العقيدة في زمن العولمة الحاضر وفقاً لما يتم التداول به على الصعيد العام، باتت، والحق أولى أن يقال، مادةً ملتبسة اختلطت فيها طُرُق المقاربات، وامتزجت بها المعلومات المتضاربة بأوجه الرأي والقياس، بل وبالخيال الواسع أيضاً. لدينا اتجاهات تفسيرية قائمة على النسبية الخالصة، والذاتية المُفرطة، والتلفيقية المتقلّبة من قواعد العلم والمنطق، وهي قلما توفّق في أدنى متطلبات البحث الرّصين ومنهجياته السليمة. ولدينا نزعات (ونزغات) تركيبية هي مواليد هجينة لـ"كتب السوق"، يحاول البعض التصدي لها بمبادرات شخصية تتأثر على ما يبدو بما تمّ وضعه في الأقبية، وما نُشر في الأقطار من رسائل وكتب فضلاً عن مطبوعات ومنشورات على مواقع الانترنت تُلقّق الكثير عن بني معروف، في حين بدا البيت بذاته عاجزاً عن استدراك عمق هذه الفجوة التي صدّعت رؤية التراث الروحي لدى العدد الجم من أبنائنا، وهذه إشكالية قائمة ومتفاقمة يجب الولوج إلى حلها.

وعِيُّ الهُويّةِ عالقٌ إذًا في بؤرة التردّي الثقافي والإئمائي، المعبّر عنه بطريقةٍ تعثّر النهوض بشكلٍ صحيٍّ معاصر، ومراوحتنا في فخّ التجاذبات العصبية، وتفاقم التفرّد والنسبية في طرائق النظر المتعلقة بمختلف جوانب حياتنا اليومية، كل هذا يُسهم في تشويش مفهوم الهُويّة في أذهان وقلوب الأجيال الشابّة، وهو موقف ناتج عن التعب والحيرة وسماع التناقضات لا عن رأي جازم في مسألة مفهومة.

إن امتثال الهويّة التوحيدية، هو ابتعادٌ بالقدر نفسه عن التعصب، والدوغمائية والسلفية الجامدة، والأيقونية، لأننا حينذاك نلجُ بها حرمَ الحق الذي يحرّر. ذلك أن العقيدةَ في جوهرها خروجٌ عن مجاز اللغة وزخرفها إلى الفضاء الروحي لمعنى النص، وهي اعتناقٌ من أسر الأداء الشكليّ باتجاه تحقّق مسلكي، أي توحّد قلبي ما بين الذهن واللسان وعمل الجوارح، لذلك، فإن الهويّة التوحيدية هي ارتباطٌ بمعنى الوجود ومحاولة إدراك كنه صيرورته قدر الطاقة البشرية من دون الوقوع في أسر الناموس.

وعِيُّ الهويّة هو النواة الصلبة للشخصية الإنسانية، والهويّة التوحيدية إنسانية بامتياز إذا ما توصلنا إلى استشعار إيقاع توازنها اللطيف داخل المعنى الشامل لمختلف الحضارات البشرية، ولا يحتاج مجتمعنا المعاصر الى حلقات في الشمبالا والمهاريشي والإيزوتيريك والمديتيشن والجسد الأثيري، بل يحتاج الأمرُ إلى

قلبٍ مُحبِّ، ومقاربةٍ هادئةٍ عاقلة، وتجردٍ معرفيٍّ، ومفيدٍ ثقةٍ، ومن ثم إلى القليل من القراءات الذكية، وهذا يؤدي حتماً إلى احتفاظ الموحد وخاصةً الموحدة بشكلٍ مميزٍ في سباق ما يُسمى المدنية المعاصرة، إنه سرٌّ آخر لو يهتدي إليه شبابنا وفتياتنا بعقليةٍ تسمو فوق إشكاليات الحاضر، لتمكنوا إذن من إضاءة المستقبل.

معرفة النفس

معلومٌ أن سقراط بتحقيقه الدائم طيلة حياته لماهية شعار معبد دلف "اعرف نفسك"، أرسى العتبات الخالدة لهيكل الفلسفة، من حيث هي علم الحكمة، أي أن يبحث المرء عن المعرفة، التي من شأنها أن تجعله حاضراً في الحياة و الموت على حدٍّ سواء، كما عبّر أفلاطون في قوله: "ليس على الإنسان أن يطلب حياةً صالحةً وحسب، وإنما موتاً صالحاً أيضاً" أي أن يُحسن اكتسابَ وجوده ومصيره في آنٍ معاً.

أن لا يُعنى المرء بهذه المسألة، هو شبيهٌ ووقوف على شفير العبث، إن لم يكن تبيدياً لرأسمال الوقت المتناقص على الدوام. وليس في وسع الكائن استدراك معناه دون الوقوف على معرفةٍ "تعبت فيها الحكماء" وهي معرفة النفس.

ومن ما قاله السيد المسيح (ع): "ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الإنسان".

حقيقة الشجاعة مواجهة النفس. وأنها ذات ميول إلى الخير الذي هو فيها، ولكن أيضاً تحولها إلى الميول الضدية، ونزوعها الخفي إلى النرجسية، والخلود إلى الجاه والتسلط. كذلك استحسانها للرأي والقياس والتفرد ولو على حساب الحق. وراحتها بالهوى، وانحلالها بالسأم، وامتعضها من طول الجدّ والمكابدة. ومن حيث هي قابلة للصور، فقد التبست لديها معايير الجمال، فلا تقيم وزناً إلا لما هو حسّي باهر يُذهل العقل ويستثير الطبع. لقد استولت النفس - بدأها العنيد إلى استسهال "الراحة والإباحة" - على مرآة بصيرتنا، وباتت حجاباً بيننا وبين حقيقتها.

مرأة العقيدة تُلزم النفس الأمانة حدّها، فلا تجنح دون أيّ رادع في رغباتٍ متأجّجة تُخرِّقها بالتقوب، فلا يرسخ فيها أيّ شيء من حقائق الواقع. أن الطالب المرید يجب أن يختلج في قلبه شغفُ البحث عن الحقيقة خارج سبل الانفعال الحسّي (كي لا يُقال الشهوات)، بل من داخل حركة الفعل العقلاني الذي به يتدرّج المرء في معارج المعرفة والتحقق، وكلما ازداد الانسان معرفة ازداد عمقاً في سيره وسلوكه الى الله.

كيف للشباب المعاصر أن ينظرَ في هذه المرأة، ما لم يجد مُفيداً مرشداً يخاطبُه من "الدلائل العقلية ومن نفسه" ذاتها؟ من ناحية أولى يجب على المفيد أن يعي قلقَ النفوس في الحياة الراهنة، وأن يدرك جدلية المتاهة التي تزرعها الصور المضيفة البراقة داخل الصدور، وأن يقاربَ الفطرة الإنسانية بحنوٍّ وعطفٍ مقاربة "الأخ

الشفيق"، بمعنى أن لا يكون المفيدُ رجلَ دينٍ وحسب، وإنما أيضًا، من حيث الروح، الأم والأخ والصديق والطبيب والملاذ والمثل الذي لا يحكي الأمر إلا وهو فاعله. ومن ناحية ثانية، فإنه أولى بالشباب المعاصر أن لا يقع ضحية الأفكار الخاطئة عن معتقده، والانطباعات المشوّهة، والالتباسات المتولّدة من كثرة الإصدارات الهجينة عن المغرضين الحاقدين، وأن لا يسارع إلى النفور انعكاسًا لبعض الظواهر السائدة، متخليًا عن ليونة الطباع واتساع أفقها. إنه لأمر بديهيّ أن نعيّ شروط وجودنا (طبائع المكان الذي ولدنا فيه، ما له وما إليه، وما علينا) بشكل لا يعتريه لبس ولا إبهام. ومن غير الطبيعي على الإطلاق، بل من المفارقة الغادرة المستهجنة أن يتلقّف الطالب المعرفة الروحية، والفكرة عن تراثه الروحي من كتب أقل ما يُقال فيها أنها كتبت في العتمة بأسماء خادعة أو من كتب استقت مادتها من "بضاعة السوق" دون أن تقارب إيقاع التوحيد في صدرٍ مُوحّدٍ مُخلص.

وهذا سرّ آخر، لو استدرك معانيه الجيل الشاب، لفتحت عليه أبواب النعمة، ورسخ في الأساس المتين الذي يُبنى عليه ملاذًا مانعًا، وعضنًا جامعًا، وصرحًا نافعا، يقيهم من عواصف الأزمان المتقلبة.

هنا يكمن سر النجاح في إيجاد الأسس والترابط بين المرشد والمرشد والحقيقة، كما يجب ان نفرق بين القلوب التي سلكت طريق الإيمان من أجل الإيمان وتلك التي تشق الطرق العلمية نحو الحقيقة.

ثقافة شمولية

إنه القرآن الكريم، جمع علم الأولين والآخرين وإرثُ الموحدِّ، هو كلُّ خيرٍ كامنٍ في كلِّ حضارةٍ إنسانيةٍ، إنه أمرٌ لو عقلهُ المرءُ بدلالاته لاستشعرَ أن المخزونَ الثقافيَّ للعقيدة، هو مخزونٌ شموليٌّ جامعُ الآن وفي كلِّ وقتٍ. يملكُ الموحدُّ أو الموحدة في خزانة العقيدة مفتاحَ الإيقاع المنسجم بين كلِّ تلك الكنوز المعرفية، والذي به يصحُّ توحيدٌ، وتتجلَّى حكمةٌ مقدسة. والموحدُّ يملكُ المعادلةَ المنهجيةَ للتفاعل، واستنباط حقيقتيَّة المعنى واقتفاء الأثر لدخول هيكل فلسفة العِلْم ولو كثرت المفاهيم والمناهج المترتبة باستمرار عن أحدث نظرياته المقترحة.

ما هي طبيعة هذه الملكية؟

إنه الانتماء. عندما يدركُ الطالب المريدُ مدى ارتباط كلِّ تلك الموارد وصلتها بكلمة الحقِّ، لأنها معقودةٌ بها وموصولة كما جاء في المأثور، يعلمُ حينئذٍ في أن ثمة وحدةً ضابطةً للكلِّ، وانسجاماً متزناً يؤلفُ فيما بين حقائقها المصفاة، وسراً جامعاً كان في أصل انبثاقها من كلية العقل، وإنما الذي يحول بين بصيرة المرید وبينها هو التوقُّفُ أمام ظواهر الأشياء وتطبيقاتها الشكلانية واستنفاد معانيها- التي يُفترضُ أن تكون حيةً متجددةً على الدوام، مستندة للأصل، مفهومة المقصد، لا ينكرها العقل، فلا تُجمدُ حركةً

العقل دون استشعارها بحثاً دائماً عن منابع الحق وسعيًا دؤوبًا في رحاب نوره.

عندما يكتشفُ المريدُ هذه الحقيقة، يتنبّه إلى أفق الرؤية الفسيح الممتد أمامه، والذي هو منتم إليه، فيعقلُ "مركزَ درايته" وحدّه فيه ويتّضح له معنى تحقّقه في "كمالهِ الأنسي". تحت ضوء العقل الأرفع. بهذا المعنى نرى أن عولمةَ الحق تقيّمها نواةُ المعرفة الشمولية، على النقيض تماماً من عولمة الصراع الكاسحة في زمننا الحاضر، حيث تحوّل العالمُ إلى ساحةٍ مستباحةٍ لحروبٍ متتالية، من شأنها هدم كل هويّة إنسانية تحاول صيانة معاييرها الأخلاقية من سيل الإباحة الجارف.

الحقيقة

ليس في وسع الإنسان إدراك الحقيقة، وإنما السعي في سبيلها. هذا الأمرُ يقيمُ تمييزاً بين الحقيقة المطلقة والحقيقة الإنسانية، وهو تمييزٌ لا يمسّ المعنى، بقدر ما هو يحاول تعيين الحدّ الذي به تستقيمُ الحياة. والحدّ في العقيدة، هو الوساطة بين الواحد الأحد وعالم الخلق، في حين أن اندفاعَ النفس خارج الحدّ هو انزلاقٌ في الضديّة.

تقدّم عقيدة التوحيد لنفوسنا الساعية وجوهاً لا تحصي من وجوه الحقيقة الإنسانية الواحدة. وربما تكونُ مقاربةُ الإجابة على السؤال

الأساسي بصيغة ميدانية واقعية، دليلاً ساطعاً على الآفاق الخيرة، التي تتكشف أمام الساعين إلى المعرفة التوحيدية طلباً للفضيلة. وهذه الصيغة تمثلت بطرح السؤال على عدد من الراغبين في تلمس حقائق هذا السبيل، والمثابرين على الصلّة بما ينير لهم مسالك هذا الدرب.

أجاب أحدهم قائلاً: يعلمني التوحيدُ الدخولَ في نظام خصال، من شأنها أن تجعلني مستشعراً لمسلك في الحياة، هو أكثر سموًا وانفعالا بالغبطة من كل ما عرفته بعيداً عن التوحيد. يضعني هذا الوعي في حالة، أكتشف فيها أن لا فرق على الإطلاق بين حقيقتي كإنسان وبين التوحيد الذي هو الوجود بعينه.

تعلمت في الخارج، وخضت فيما تتيجُه الحياة المعاصرة، لكنّ روحي من الداخل لم تكتشف أبعداً لغة المحبة والطمأنينة والأنس والاسترسال والألفة إلا في التوحيد. علمت أن ما كنت فيه لا يعدو كونه شواش الحسّ، والتوحيد دفعني إلى أن أعي مرحلة إنسانية هي أقرب إلى إمكان الصفاء والتحقق.

وقال آخر، علمني التوحيدُ أنه بغياب العامل الأخلاقي فإنه لا يمكن على الإطلاق أن يُزرع أي شيءٍ مثمرٍ في قلب الإنسان.

وأجابت إحداهنّ قائلة: إن التوحيد هو توأم المعاصرة، لأنه وعي الوجود باستمرار. تعلمت أنه يتوجب عليّ أن أعيش النصيحة قبل أن أبوح بها إلى الغير. قدّم التوحيد لي شرعة حقوق إنسان غير

متأتية من نقص أو من ثورة دموية، فهذه الأخيرة شرعة تنظّم
الفوضى وتشرّع الإباحة، أما شرعة التوحيد فإنها نبّهتني إلى
طبيعة الوجود الحقيقية. علينا أن نستقي منه لأنه الوجود لا أن
نننظر ماذا يقدّم لنا دون أن نفعل أيّ شيء. هو الحرّية المثمرة
والاحترام والانتماء والعدل. مسالك الأفاضل مدرسة لا مثيل لها
للعدل والمساواة التامة القائمة على روح إنسانية لا تنفر إلا من
الاستغراق في الأنانية ونسيان الحق.

لقد كانت الحقيقة محرّكًا للعقول والأفئدة، إذ بسطّ التوحيد أمامها
حقلّ الوعي لمساءلة النفس، والتطلّع إلى مكانتها في الزمان
والمكان، وما أبعد منهما معًا. يلزم المرء في ذلك الحقل شجاعة
يواجه بها حقيقة وضعه في عالم اليوم. مواجهة عبّر عنها أحدُهم
بشكلٍ ساطع حينما ثار على السؤال قائلاً: بل ماذا تقدّم الحضارة
للشباب المعاصر؟ وسارع إلى إجابة نفسه قائلاً: إنّها تقدّم له حتمية
الفراغ من معاني الوجود، وسقوط الأنظمة في شهوات الفناء،
والتطرّف الدينيّ وتحويل العالم من البسيط إلى المشاكل المعقدة،
ومن حكمة العقل إلى متاهة الجهل. التوحيد مكنني من رؤية
التوازن، وعليّ أن أسأل نفسي: ماذا أقدم له كي أستحقّه؟

هي الطريق التي يجب رسمها للأجيال المقبلة بين جوهر الإبداع
ووحدة التحقق.